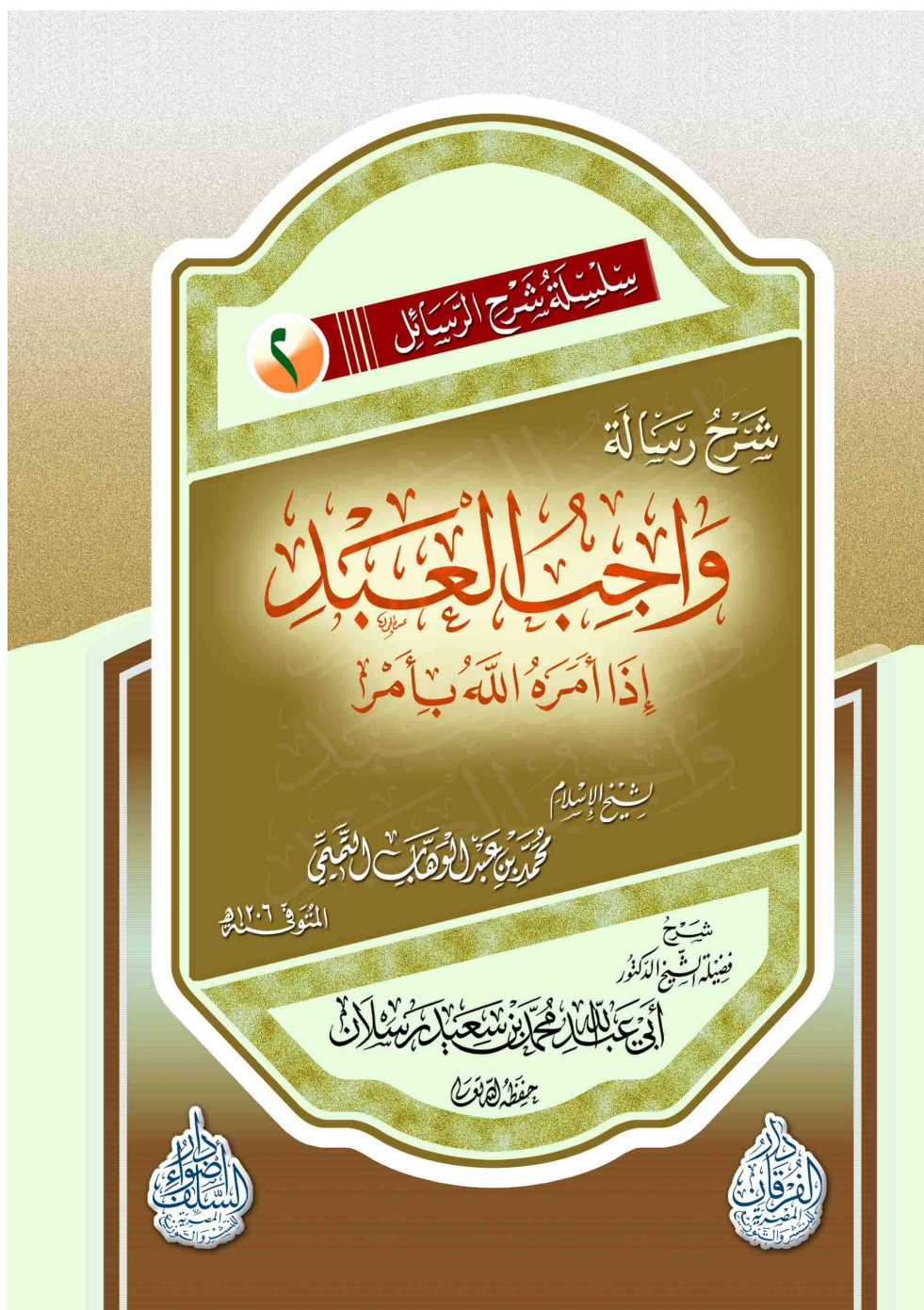




بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنُسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَمِنْ الرَّسَائِلِ النَّافِعَةِ الْمُفِيدَةِ -عَلَى وَجَازَتِهَا وَاخْتَصَارِهَا- رِسَالَةُ الْإِمَامِ شَيْخِ الْإِسْلَامِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ رَاشِدِ التَّمِيمِيِّ، الْمُتَوَفَّى سَنَةَ سِتٍّ وَمِائَتَيْنِ وَأَلْفٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-، وَهَذِهِ الرِّسَالَةُ هِيَ:

«واجب العبد إذا أمره الله بأمر»

شرح رسالة: «واجب العبد إذا أمره الله بأمر»

٦

فَمَا هُوَ وَاجِبُ الْعَبْدِ نَحْوَ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - بِهِ؟

هَذَا هُوَ مَا حَاوَلَ الشَّيْخُ - رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ - أَنْ يُجَلِّيهُ فِي هَذِهِ الرِّسَالَةِ الْوَجِيزَةِ الْمُخْتَصَرَةِ، وَهِيَ رِسَالَةٌ عَظِيمَةُ النِّفْعِ جَلِيلَةُ الْقَدْرِ، وَهَذَا شَرْحٌ مُوجِزٌ لَهَا وَتَعْلِيْقٌ مُخْتَصَرٌ عَلَيْهَا.

أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى، وَصِفَاتِهِ الْمُثَلَّى، أَنْ يَرْزُقَنَا فِيهِ الْإِخْلَاصَ وَالْقَبُولَ.

فَأَقُولُ:

عِلْمٌ مَا كَلَّفَ اللَّهُ بِهِ عَبْدَهُ وَالْقِيَامُ بِهِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي كُتِّفَ بِهِ فِعْلاً وَتَرْكاً هُوَ الْغَايَةُ الَّتِي لِأَجْلِهَا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ، فَقَدْ خَلَقَ اللَّهُ الْإِنْسَانَ لِعِبَادَتِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وَالَّذِينَ كُلُّهُمْ دَاخِلٌ فِي الْعِبَادَةِ، وَالْعِبَادَةُ أَصْلٌ مَعْنَاهَا الذُّلُّ، يُقَالُ: طَرِيقٌ مُعَبَّدٌ؛ إِذَا كَانَ مُذَلَّلاً قَدْ وَطَّأَتْهُ الْأَقْدَامُ وَعَبَّدَتْهُ، وَلَكِنَّ الْعِبَادَةَ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا الْعَبْدُ تَتَضَمَّنُ مَعْنَى الذُّلِّ وَمَعْنَى الْحُبِّ، فَهِيَ تَتَضَمَّنُ غَايَةَ الذُّلِّ لِلَّهِ تَعَالَى بِغَايَةِ الْمَحَبَّةِ لِلَّهِ تَعَالَى.

قَالَ الْإِمَامُ الْعَلَامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي النُّونِيَّةِ:

وَعِبَادَةُ الرَّحْمَنِ غَايَةُ حُبِّهِ	مَعَ ذُلِّ عَابِدِهِ هُمَا قُطْبَانِ
وَعَلَيْهِمَا فَلَكُ الْعِبَادَةُ دَائِرٌ	مَا دَارَ حَتَّى قَامَتِ الْقُطْبَانِ
وَمَدَارُهُ بِالْأَمْرِ أَمْرٌ رُسُولِهِ	لَا بِالْهَوَى وَالنَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ

فَعَلَى هَذَيْنِ الْقُطْبَيْنِ - عَلَى الْحُبِّ وَالذُّلِّ - دَارَ فَلَكُ الْعِبَادَةِ، وَلَا يَكْفِي أَحَدُهُمَا فِي عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى، بَلْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ تَعَالَى أَحَبَّ إِلَى الْعَبْدِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَنْ يَكُونَ اللَّهُ تَعَالَى أَعْظَمَ عِنْدَ الْعَبْدِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، لَا يَسْتَحِقُّ الْمَحَبَّةَ التَّامَّةَ وَالْخُضُوعَ التَّامَّ إِلَّا اللَّهُ،

شرح رسالة: «واجب العبد إذا أمره الله بأمر»

٧

وَكُلُّ مَا أَحَبَّ لغيرِ اللَّهِ فَمَحَبَّتُهُ فَاسِدَةٌ، وَمَا عَظَّمَ بِغَيْرِ أَمْرِ اللَّهِ فَتَعَظِيمُهُ بَاطِلٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

فالنِّزَاعُ هَاهُنَا كَمَا تَرَى فِي الْأَحَبِّيَّةِ وَلَيْسَ فِي الْحَبِيَّةِ، فَإِنَّ اللَّهَ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- هُوَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِ، وَجَعَلَ طَبِيعَةً غَرِيزِيَّةً فِي الْإِنْسَانِ أَنْ يُحِبَّ وَالِدَهُ، وَوَلَدَهُ، وَزَوْجَهُ، وَعَشِيرَتَهُ، وَمَالَهُ، وَأَرْضَهُ، وَتِجَارَتَهُ، فَلَمْ يُكَلِّفِ اللَّهَ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- الْعَبْدَ بِمَا لَا يَسْتَطِيعُ، فَهَذَا يُحِبُّ بِلَا حَرَجٍ، وَلَكِنْ لَا تُقَدِّمُ مَحَبَّةَ شَيْءٍ مِنْ تِلْكَ الْمَذْكُورَاتِ عَلَى مَحَبَّةِ اللَّهِ وَمَحَبَّةِ رَسُولِهِ ﷺ.

العبدُ يُرَادُ بِهِ الْمُعْبَدُ الَّذِي عَبَدَهُ اللَّهُ فَذَلَّهُ وَدَبَّرَهُ وَصَرَّفَهُ، وَبِهَذَا الْإِعْتِبَارِ؛ وَبِهَذَا الْمَعْنَى: الْمَخْلُوقُونَ كُلُّهُمْ عِبَادُ اللَّهِ -الْأَبْرَارُ مِنْهُمْ وَالْفُجَّارُ، وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْكَافَرُونَ، وَأَهْلُ الْجَنَّةِ وَأَهْلُ النَّارِ-؛ إِذْ هُوَ رَبُّهُمْ كُلُّهُمْ وَمَلِكُهُمْ، لَا يُخْرِجُونَ عَنْ مَشِئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ وَكَلِمَاتِهِ التَّامَاتِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهَا بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ، فَمَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ وَإِنْ لَمْ يَشَاءُوا، وَمَا شَاءُوا إِنْ لَمْ يَشَأْهُ لَمْ يَكُنْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣].

فهو سُبْحَانَهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَخَالِقُهُمْ، وَرَازِقُهُمْ، وَمُحْيِيهِمْ، وَمُمِيتُهُمْ، وَمُقَلِّبُ قُلُوبِهِمْ، وَمُصَرِّفُ أُمُورِهِمْ، لَا رَبَّ لَهُمْ غَيْرُهُ، وَلَا مَالِكَ لَهُمْ سِوَاهُ، وَلَا خَالِقَ لَهُمْ إِلَّا هُوَ، سِوَاءَ اعْتَرَفُوا بِذَلِكَ أَمْ أَنْكَرُوهُ، وَسِوَاءَ عَلِمُوا ذَلِكَ أَمْ جَهِلُوهُ.

شرح رسالة: «واجب العبد إذا أمره الله بأمرٍ»

والعبودية: منها ما يتعلّق بالرُّبُوبِيَّة، ومنها ما يتعلّق بِالْإِلَهِيَّة، عبودية الرُّبُوبِيَّة لَمْ يَكُنْ فِيهَا نَزَاعٌ لِأَنَّ الْكُلَّ مَرْبُوبٌ مَقْهُورٌ مُسَخَّرٌ مُذَلَّلٌ لِلَّهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- بِهَذَا الْمَعْنَى الَّذِي مَرَّ، وَإِنَّمَا كَانَ النِّزَاعُ فِي عُبُودِيَّةِ الْأُلُوهِيَّةِ؛ إِذَا عَرَفَ الْعَبْدُ أَنَّ اللَّهَ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- رَبُّهُ وَخَالِقُهُ، وَأَنَّهُ مُفْتَقِرٌ إِلَيْهِ، مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ، عَرَفَ الْعُبُودِيَّةَ الْمُتَعَلِّقَةَ بِرُبُوبِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى.

وهَذَا الْعَبْدُ يَسْأَلُ رَبَّهُ، وَيَتَضَرَّعُ إِلَيْهِ، وَيَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ، وَلَكِنْ قَدْ يُطِيعُ أَمْرَهُ وَقَدْ يَعَصِيهِ، وَقَدْ يَعْبُدُهُ مَعَ ذَلِكَ وَقَدْ يَعْبُدُ الشَّيْطَانَ وَالْأَصْنَامَ مِنْ دُونِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

فعبودية الرُّبُوبِيَّة: لَمْ يَكُنْ فِيهَا النِّزَاعُ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْعُبُودِيَّةَ لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ، وَلَا يَصِيرُ بِهَا الرَّجُلُ مُؤْمِنًا؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: «تَسْأَلُهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ؟ فَيَقُولُونَ: اللَّهُ، وَهُمْ مَعَ هَذَا يَعْبُدُونَ غَيْرَهُ». وَقَدْ كَانَ الْمُشْرِكُونَ يُقَرِّونَ بِالْحَقِيقَةِ الْكَوْنِيَّةِ وَتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، إِذْ هُمْ يَقَرُّونَ أَنَّ اللَّهَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِكُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٨٥ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْقِِبُ ٨٧ قُلْ مَنْ يَدْعُو مَلَكَوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ٨٨ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ٨٩ [المؤمنون: ٨٤-٨٩].

فَالْمُشْرِكُونَ كَانُوا يَقَرُّونَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَالِقُهُمْ وَرَازِقُهُمْ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ يَعْبُدُونَ غَيْرَهُ. وَكَثِيرٌ مِمَّنْ يَتَكَلَّمُ فِي الْحَقِيقَةِ فَيَشْهَدُهَا يَتَكَلَّمُ فِي الْحَقِيقَةِ الْكَوْنِيَّةِ الَّتِي يَشْتَرِكُ فِيهَا

شرح رسالة: «واجب العبد إذا أمره الله بأمر»

٩

وفي شهودها وفي معرفتها المؤمن والكافر، والبر والفاجر، بل وإبليس مُعترف بهذه الحقيقة الكونية، وأهل النار مُعترفون بها أيضاً.

قال إبليس: ﴿رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [ص: ٧٩].

وقال: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩].

وأمثال هذا من الخطاب الذي يُقر فيه إبليس بأن الله ربُّه وخالقُه وخالق غيره.

وكذلك أهل النار قالوا: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾

[المؤمنون: ١٠٦].

وقال تعالى عن أهل النار: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ

وَرَبَّنَا﴾ [الأنعام: ٣٠].

فَمَنْ وَقَفَ عِنْدَ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ وَعِنْدَ شُهُودِهَا، وَلَمْ يَقُمْ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْحَقِيقَةِ الدِّينِيَّةِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي هِيَ عِبَادَتُهُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِالْوَهْيَةِ وَطَاعَةِ أَمْرِهِ تَعَالَى وَأَمْرِ رَسُولِهِ ﷺ كَانَ مِنْ جِنْسِ إِبْلِيسَ وَأَهْلِ النَّارِ، وَهَذَا يُحْطَى فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ الْخَلْقِ، يَتَوَقَّفُونَ عِنْدَ شُهُودِ الْحَقِيقَةِ الْكُونِيَّةِ وَتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَالْأَصْلُ أَنَّ هَذَا لَمْ يُنَازَعْ فِيهِ إِلَّا طَوَائِفٌ قَلِيلَةٌ جِدًّا مِنْ الْبَشَرِ.

فَأَمَّا فِي الْقَدِيمِ: فَكَانَ الدَّهْرِيُّونَ يَقُولُونَ: نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ.

وَأَمَّا فِي الْحَدِيثِ: فَالشُّيُوعِيُّونَ، وَقَدْ أَخْزَاهُمُ اللَّهُ تَعَالَى وَأَذْهَبَهُم.

وَأَمَّا جُمْلَةُ الْخَلْقِ فَإِنَّهُمْ يُقَرُّونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ

مُدَبِّرُ كُلِّ شَيْءٍ، وَهَذَا هُوَ تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ، فَيَتَوَقَّفُونَ عِنْدَ حُدُودِ شُهُودِ الْحَقِيقَةِ الْكُونِيَّةِ وَتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ.

شرح رسالة: «واجب العبد إذا أمره الله بأمر»

مَنْ وَقَفَ عِنْدَ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ وَعِنْدَ شُهُودِهَا وَلَمْ يَقُمْ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْحَقِيقَةِ الدِّينِيَّةِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي هِيَ عِبَادَتُهُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِالْوَهْيِيَّةِ وَطَاعَةِ أَمْرِهِ تَعَالَى وَأَمْرِ رَسُولِهِ ﷺ؛ كَانَ مِنْ جَنْسِ إِبْلِيسَ وَأَهْلِ النَّارِ.

وَأَمَّا الْعُبُودِيَّةُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِالْإِلَهِيَّةِ فَالْعَبْدُ فِيهَا بِمَعْنَى الْعَابِدِ، مَرَّ فِي الْعُبُودِيَّةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالرَّبُوبِيَّةِ أَنَّ الْإِنْسَانَ فِيهَا عَبْدٌ بِمَعْنَى الْمَعْبُدِ، وَهُنَا بِمَعْنَى الْعَابِدِ فَيَكُونُ عَابِدًا لِلَّهِ لَا يَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ، فَيُطِيعُ أَمْرَهُ وَأَمْرَ رَسُولِهِ ﷺ، وَيُؤَالِي أَوْلِيَاءَهُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ، وَيُعَادِي أَعْدَاءَهُ، وَلِهَذَا كَانَ عُنْوَانُ التَّوْحِيدِ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، بِخِلَافِ مَنْ يُقَرُّ بِرَبُوبِيَّةِ تَعَالَى وَلَا يَعْبُدُهُ، أَوْ يَعْبُدُ مَعَهُ إِلَهًا آخَرَ.

فَالْإِلَهُ هُوَ الَّذِي تَأَلَّهُ الْقُلُوبُ بِكَمَالِ الْحُبِّ وَالتَّعْظِيمِ وَالْإِجْلَالِ وَالتَّكْرِيمِ، وَالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَهَذِهِ الْعِبَادَةُ هِيَ الَّتِي يُحِبُّهَا اللَّهُ وَيَرْضَاهَا، وَبِهَا وَصَفَ الْمُصْطَفَيْنَ مِنْ عِبَادِهِ، وَبِهَا بَعَثَ رُسُلَهُ.

وَأَمَّا الْعَبْدُ بِمَعْنَى الْمَعْبُدِ الْمُذَلَّلِ الْمُسَخَّرِ الْمَقْهُورِ فَسَوَاءٌ أَقَرَّ بِذَلِكَ أَوْ أَنْكَرَهُ فَهُوَ بِهَذَا الْمَعْنَى يَشْتَرِكُ فِيهِ الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ، حَتَّى إِبْلِيسَ، وَحَتَّى أَهْلَ النَّارِ كُلَّهُمْ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى، وَفِي هَذَا الْفَلَكَ يَدُورُونَ، لَا يَخْرُجُونَ عَنِ التَّسْخِيرِ وَالْقَهْرِ وَالتَّذْلِيلِ، وَلَكِنَّ عُبُودِيَّةَ الْأُلُوهِيَّةِ هِيَ الَّتِي يَكُونُ الْعَبْدُ فِيهَا بِمَعْنَى الْعَابِدِ الَّذِي يَتَوَجَّهُ إِلَى اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ بِالْعِبَادَةِ يَعْبُدُهُ لَا يَعْبُدُ أَحَدًا سِوَاهُ وَيُطِيعُ أَمْرَ رَسُولِهِ ﷺ.

بِالْفَرْقِ بَيْنَ هَذَيْنِ النَّوعَيْنِ يُعَرَّفُ الْفَرْقُ بَيْنَ الْحَقَائِقِ الدِّينِيَّةِ الدَّاخِلَةِ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ وَدِينِهِ وَأَمْرِهِ الشَّرْعِيِّ، وَهَذِهِ الْحَقَائِقُ الدِّينِيَّةُ هِيَ الَّتِي يُحِبُّهَا اللَّهُ وَيَرْضَاهَا وَيُؤَالِي أَهْلِهَا وَيُكْرِمُهُمْ بِجَنَّتِهِ، يُعَرَّفُ الْفَرْقُ بَيْنَ الْحَقَائِقِ الدِّينِيَّةِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْحَقَائِقِ الْكُونِيَّةِ الَّتِي

شرح رسالة: «واجب العبد إذا أمره الله بأمر»

١١

يَشْتَرِكُ فِيهَا الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ، وَالْبَرُّ وَالْفَاجِرُ، وَهِيَ الَّتِي مَنِ اكْتَفَى بِهَا وَلَمْ يَتَّبِعِ الْحَقَائِقَ الدِّينِيَّةَ الشَّرْعِيَّةَ كَانَ مِنْ جِنْسِ إِبْلِيسَ اللَّعِينِ وَالْكَافِرِينَ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَمَنِ اكْتَفَى فِيهَا بَعْضَ الْأُمُورِ دُونَ بَعْضٍ، وَفِي مَقَامٍ دُونَ مَقَامٍ، أَوْ حَالٍ دُونَ حَالٍ؛ نَقَصَ مِنْ إِيْمَانِهِ وَوَلَايَتِهِ اللَّهُ بِحَسَبِ مَا نَقَصَ مِنَ الْحَقَائِقِ الدِّينِيَّةِ.

فَالْإِنْسَانُ عَلَيْهِ إِذَا كَانَ مُسْلِمًا أَمْرُهُ لِرَبِّهِ حَقًّا، مُؤْمِنًا بِنَبِيِّهِ ﷺ صِدْقًا - عَلَيْهِ أَنْ يُحَقِّقَ عُبودِيَّةَ الْأُلُوْهِيَّةِ، بِأَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى -، صَارِفًا كُلَّ أَلْوَانِ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَحْدَهُ، لَا يَعْبُدُ غَيْرَهُ، وَلَا يَتَوَكَّلُ عَلَى أَحَدٍ سِوَى رَبِّهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى -، وَيُطِيعُ أَمْرَ نَبِيِّهِ ﷺ.

فَتَحْقِيقُ الْعُبودِيَّةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْإِلَهِيَّةِ وَهِيَ الْعُبودِيَّةُ الَّتِي يُحِبُّهَا اللَّهُ وَيَرْضَاهَا وَيُوَالِي أَهْلِهَا وَيُكْرِمُهُمْ بِجَنَّتِهِ؛ تَحْقِيقُ تِلْكَ الْعُبودِيَّةِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبَطَاعَةِ أَمْرِهِ وَأَمْرِ رَسُولِهِ ﷺ، وَمُؤَالَاةِ أَوْلِيَائِهِ، وَمُعَادَاةِ أَعْدَائِهِ.

وَتَحْقِيقُ الْعَبْدِ مَا أَوْجَبَهُ الرَّبُّ تَعَالَى عَلَيْهِ مِنَ الْوَاجِبَاتِ نَحْوَ أَمْرِهِ تَحْقِيقُ لِنَتْلِكَ الْعُبودِيَّةِ.

وَرِسَالَةُ الشَّيْخِ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - عَنْوَانُهَا: «وَاجِبُ الْعَبْدِ إِذَا أَمَرَهُ اللَّهُ بِأَمْرٍ».

بِمَعْنَى: مَا هُوَ وَاجِبُ الْعَبْدِ نَحْوَ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ؟

وَفِيمَا يَلِي - إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى - شَرْحٌ مُوجِزٌ لِلرَّسَالَةِ، وَتَعْلِيقٌ مُخْتَصَرٌ عَلَيْهَا.

وَالشَّرْحُ وَالتَّعْلِيقُ مُحَاضَرَةٌ أُلْقِيَتْ - بِحَوْلِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ - فِي مَسْجِدِ الْغَفْرَانِ، بِالْحَيِّ الثَّامِنِ، بِمَدِينَةِ نَصْرٍ، مِنْ أَعْمَالِ مِصْرَ - حَرَسَهَا اللَّهُ وَسَائَرَ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ -.

وَقَدْ كَانَتْ تِلْكَ الْمُحَاضَرَةُ لَيْلَةَ الْإِثْنَيْنِ الْحَادِي وَالْعِشْرِينَ مِنْ جُمَادَى الْأُولَى مِنْ

شرح رسالة: «واجب العبد إذا أمره الله بأمرٍ»

١٢

السَّنةُ التَّاسِعَةُ والعِشْرِينَ وأربعمئة وألف من هجرة نبيِّنا مُحَمَّدٍ ﷺ، المُوافق للسادسِ والعشرين من الشهر الخامس لعام ثمانية وألفين من ميلاد عبدِ اللهِ ورسولِهِ عيسى بنِ مَرْيَمَ، على نبيِّنا وعليهِ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ.

أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ هَذَا الْعَمَلَ خَالِصًا لَوَجْهِهِ، وَأَنْ يَرْزُقَنَا فِيهِ الْإِخْلَاصَ وَالْقَبُولَ، وَأَنْ يَجْزِيَ خَيْرًا كُلَّ مَنْ أَعَانَ عَلَى طَبْعِهِ وَنَشْرِهِ، وَإِذَاعَتِهِ وَبَثِّهِ، وَكُلَّ مَنْ نَظَرَ فِيهِ وَدَلَّ عَلَيْهِ.

وكتب

أبو عبد الله

محمد بن سعيد رسلان

مَتْنُ الرِّسَالَةِ

قَالَ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -^(١):

إِذَا أَمَرَ اللَّهُ الْعَبْدَ بِأَمْرٍ؛ وَجَبَ عَلَيْهِ فِيهِ سَبْعُ مَرَاتِبَ:

الْأُولَى: الْعِلْمُ بِهِ.

الثَّانِيَّةُ: مَحَبَّتُهُ.

الثَّالِثَةُ: الْعَزْمُ عَلَى الْفِعْلِ.

الرَّابِعَةُ: الْعَمَلُ.

الخَامِسَةُ: كَوْنُهُ يَقَعُ عَلَى الْمَشْرُوعِ خَالِصًا صَوَابًا.

السَّادِسَةُ: التَّحْذِيرُ مِنْ فِعْلٍ مَا يُخْطِئُهُ.

السَّابِعَةُ: الثَّبَاتُ عَلَيْهِ.

إِذَا عَرَفَ الْإِنْسَانُ: أَنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِالتَّوْحِيدِ، وَنَهَى عَنِ الشِّرْكِ، أَوْ عَرَفَ: أَنَّ اللَّهَ أَحَلَّ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا؛ أَوْ عَرَفَ: أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ أَكْلَ مَالِ الْيَتِيمِ، وَأَحَلَّ لَوْلِيِّهِ أَنْ يَأْكُلَ بِالْمَعْرُوفِ إِنْ كَانَ فَقِيرًا؛ وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَعْلَمَ الْمَأْمُورَ بِهِ، وَيَسْأَلَ عَنْهُ إِلَى أَنْ يَعْرِفَهُ، وَيَعْلَمَ الْمَنْهَى عَنْهُ، وَيَسْأَلَ عَنْهُ إِلَى أَنْ يَعْرِفَهُ.

(١) انظر: «الدرر السنية في الأجوبة النجدية» (ج ٢ / ٧٤-٧٦).

واعتبر ذلك بالمسألة الأولى، وهي: مسألة التوحيد والشرك.

أكثر الناس علم أن التوحيد حق، والشرك باطل، ولكن أعرض عنه، ولم يسأل؛ وعرف: أن الله حرم الربا، وباع واشترى ولم يسأل؛ وعرف: تحريم أكل مال اليتيم، وجواز الأكل بالمعروف؛ ويتولى مال اليتيم ولم يسأل.

* **المرتبة الثانية:** محبة ما أنزل الله، وكفر من كرهه؛ لقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ﴾ [محمد: ٩].

فأكثر الناس: لم يحب الرسول، بل أبغضه، وأبغض ما جاء به، ولو عرف أن الله أنزله.

* **المرتبة الثالثة:** العزم على الفعل؛ وكثير من الناس: عرف وأحب، ولكن لم يعزم؛ خوفاً من تغير دنياه.

* **المرتبة الرابعة:** العمل؛ وكثير من الناس: إذا عزم أو عمل وتبين عليه من يعظمه من شيوخ أو غيرهم ترك العمل.

* **المرتبة الخامسة:** أن كثيراً ممن عمل لا يقنع عمله خالصاً، فإن وقع خالصاً لم يقنع صواباً.

* **المرتبة السادسة:** أن الصالحين يخافون من حبوط العمل؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢]. وهذا من أقل الأشياء في زماننا.

* **المرتبة السابعة:** الثبات على الحق والخوف من سوء الخاتمة؛ لقوله ﷺ: «إِنَّ

شرح رسالة: «واجب العبد إذا أمره الله بأمرٍ»

١٥

مِنْكُمْ مَنْ يَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَيُحْتَمُّ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ.

وَهَذِهِ أَيْضًا: مِنْ أَعْظَمَ مَا يَخَافُ مِنْهُ الصَّالِحُونَ؛ وَهِيَ قَلِيلٌ فِي زَمَانِنَا؛ فَالْتَفَكَّرُ فِي
حَالِ الَّذِي تَعْرِفُ مِنَ النَّاسِ، فِي هَذَا وَغَيْرِهِ، يَدُلُّكَ عَلَى شَيْءٍ كَثِيرٍ تَجْهَلُهُ؛ وَاللَّهُ
أَعْلَمُ.



قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى-:

إِذَا أَمَرَ اللهُ الْعَبْدَ بِأَمْرٍ؛ وَجَبَ عَلَيْهِ فِيهِ سَبْعُ مَرَاتِبَ:

الأُولَى: الْعِلْمُ بِهِ.

الثَّانِيَةُ: مَحَبَّتُهُ.

الثَّالِثَةُ: الْعَزْمُ عَلَى الْفِعْلِ.

الرَّابِعَةُ: الْعَمَلُ.

الخَامِسَةُ: كَوْنُهُ يَقَعُ عَلَى الْمَشْرُوعِ خَالِصًا صَوَابًا.

السَّادِسَةُ: التَّحْذِيرُ مِنْ فِعْلٍ مَا يُخْطِئُهُ.

السَّابِعَةُ: الثَّبَاتُ عَلَيْهِ.

الشرح

هَذَا يَنْبَغِي أَنْ تَجْعَلَهُ دَائِمًا نُصَبَ عَيْنِكَ، وَإِذَا عَيْنُ بَصِيرَتِكَ، وَأَنْ تَتَأَمَّلَ فِيهِ مَلِيًّا، وَأَنْ تُحَقِّقَهُ فِي كُلِّ أَمْرٍ أَمَرَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بِهِ، إِذَا أَمَرَ اللهُ الْعَبْدَ بِأَمْرٍ وَجَبَ عَلَيْهِ فِيهِ سَبْعُ مَرَاتِبَ: «الأُولَى: الْعِلْمُ بِهِ، الثَّانِيَةُ: مَحَبَّتُهُ»، مَحَبَّةُ أَمْرِ اللهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- الَّذِي أَمَرَ الْعَبْدُ بِهِ: «الثَّالِثَةُ مِنَ الْمَرَاتِبِ: الْعَزْمُ عَلَى الْفِعْلِ، الرَّابِعَةُ: الْعَمَلُ، الْخَامِسَةُ: كَوْنُهُ يَقَعُ عَلَى الْمَشْرُوعِ خَالِصًا صَوَابًا، السَّادِسَةُ: التَّحْذِيرُ مِنْ فِعْلٍ مَا يُخْطِئُهُ»؛ يَعْنِي: بَعْدَ وَقُوعِ الْعَمَلِ: «السَّابِعَةُ: الثَّبَاتُ عَلَيْهِ».

وَهَذِهِ الْمَرَاتِبُ السَّبْعُ الَّتِي ذَكَرَهَا الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللهُ رَبَّهَا تَرْتِيبًا حَسَنًا مُتَّصَاعِدًا مُوَافِقًا لِمَطْلُوبِ الشَّرْعِ، فَالْعَمَلُ وَمَا قَبْلَهُ مِنَ الْعِلْمِ بِهِ وَالْمَحَبَّةِ لَهُ وَالْعَزْمِ عَلَيْهِ؛ كُلُّ هَذَا يُؤَدِّي

شرح رسالة: «واجب العبد إذا أمره الله بأمرٍ»

١٨

بَعْضُهُ إِلَى بَعْضٍ، وَيَتَرْتَّبُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، فَإِذَا وَقَعَ الْعَمَلُ وَجَبَ أَنْ يَتَوَقَّرَ فِيهِ شَرْطًا قَبُولُهُ وَهُمَا: **الإِخْلَاصُ، وَالتَّابِعَةُ**، حَيْثُ لَا يُقْبَلُ عَمَلٌ إِلَّا بِهِمَا، وَهُوَ مَا عَبَّرَ عَنْهُ الشَّيْخُ **رَحِمَهُ اللَّهُ**، وَهُوَ مَا كَانَ دَائِرًا وَمَا زَالَ فِي لِسَانِ السَّلَفِ: «كَوْنُهُ يَقَعُ عَلَى الْمَشْرُوعِ خَالِصًا صَوَابًا».

الْخَالِصُ: أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ.

وَالصَّوَابُ: أَنْ يَكُونَ عَلَى وَفْقِ سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

فَهَذَا التَّرْتِيبُ الَّذِي رَتَّبَهُ الشَّيْخُ **رَحِمَهُ اللَّهُ** تَرْتِيبٌ حَسَنٌ جَدًّا مُتَّصِعِدٌ مُوَافِقٌ لِمَطْلُوبِ الشَّرْعِ.

الْعَمَلُ وَمَا قَبَلَ الْعَمَلِ مِنَ الْعِلْمِ بِهِ وَالْمَحَبَّةِ لَهُ وَالْعَزْمِ عَلَيْهِ، كُلُّ هَذَا يُؤَدِّي بَعْضُهُ إِلَى بَعْضٍ، وَيَتَرْتَّبُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، فَإِذَا وَقَعَ الْعَمَلُ وَجَبَ أَنْ يَتَوَقَّرَ فِيهِ شَرْطًا قَبُولُهُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، وَهُمَا: **الإِخْلَاصُ وَالتَّابِعَةُ**، حَيْثُ لَا يُقْبَلُ عَمَلٌ إِلَّا بِهِمَا.

وَيَجِبُ عَلَى الْعَبْدِ بَعْدَ الْإِتْيَانِ بِالْعَمَلِ مُتَوَقِّرًا فِيهِ شَرْطًا قَبُولِهِ مِنَ الْإِخْلَاصِ وَالتَّابِعَةِ أَنْ يَحْرَصَ عَلَى أَلَّا يُجِبِّطَهُ، لِأَنَّ هَذَا الْبَابَ مِنَ الْأَبْوَابِ الدَّقِيقَةِ جَدًّا فِي دِينِ اللَّهِ -جَلَّ وَعَلَا- وَمَا أَكْثَرَ الَّذِينَ يَأْتُونَ بِالْأَعْمَالِ كَمَا سَيَأْتِي -إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى-، وَكَمَا أَخْبَرَنَا النَّبِيُّ ﷺ: «يَأْتُونَ بِأَعْمَالٍ عَظِيمَةٍ مِنَ الطَّاعَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِيَضَاءٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ تَعَالَى هَبَاءً مَنثورًا»^(١)؛ لِأَنَّهَا لَمْ تُحَرَّرْ وَلَمْ تُحْمَمْ مِنْ دُخُولِ مَا يُجِبِّطُهَا، فَدَخَلَ عَلَيْهَا مَا يُجِبِّطُهَا فَجَعَلَهَا اللَّهُ -جَلَّ وَعَلَا- هَبَاءً مَنثورًا كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ الرَّسُولُ ﷺ،

(١) **حديث صحيح:** أخرجه ابن ماجه (٤٢٤٥) من حديث ثوبان **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٠٢٨).

شرح رسالة: «واجب العبد إذا أمره الله بأمرٍ»

١٩

ورَوَى ذَلِكَ ثَوْبَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَالْحَدِيثُ أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَهٍ فِي سُنَنِهِ وَإِسْنَادُهُ ثَابِتٌ صَحِيحٌ.
فِيَجِبُ عَلَى الْعَبْدِ بَعْدَ الْإِتْيَانِ بِالْعَمَلِ مُتَوَفِّرًا فِيهِ شَرْطًا قَبُولُهُ مِنَ الْإِخْلَاصِ
وَالْمُتَابَعَةِ أَنْ يَحْرِصَ عَلَى الْأَلَا يُحِبُّهُ، وَهَذَا بَابٌ دَقِيقٌ قَلَّ مَنْ يَلِجُهُ، كَمَا قَالَ الشَّيْخُ
رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَهَذَا مِنْ أَقَلِّ الْأَشْيَاءِ فِي زَمَانِنَا»، فِي زَمَانِهِ هُوَ: فَكَيْفَ فِي زَمَانِنَا نَحْنُ؟ نَسْأَلُ
اللَّهَ الثَّبَاتَ وَالْعَافِيَةَ.

فَإِذَا أَتَى الْعَبْدُ بِتِلْكَ الْمَرَاتِبِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا أَوْجَبَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَثْبُتَ عَلَى
مَا كُفِّ بِهِ، وَأَلَّا يَنْكُصَ عَلَى عَقْبِيهِ، وَأَنْ يَحْذَرَ سُوءَ الْخَاتِمَةِ.

بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ الْمَرَاتِبَ السَّبْعَ مُجْمَلَةً عَلَى هَذَا النِّحْوِ الَّذِي عَلِمْتُ؛
شَرَعَ فِي ذِكْرِهَا مَرَّةً ثَانِيَةً مُنَبِّهًا عَلَى أَهْمِيَّتِهَا، بِذِكْرِ الْمَخَاطِرِ الَّتِي تَنْبُجُ عَنْ فَقْدِهَا، أَوْ عَدَمِ
التَّحَقُّقِ بِهَا، فَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ مُشِيرًا إِلَى الْمَرْتَبَةِ الْأُولَى وَهِيَ الْعِلْمُ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بِهِ
وَأَوْجَبَهُ.



إِذَا عَرَفَ الْإِنْسَانُ: أَنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِالتَّوْحِيدِ، وَنَهَى عَنِ الشِّرْكِ، أَوْ عَرَفَ: أَنَّ اللَّهَ أَحَلَّ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا؛ أَوْ عَرَفَ: أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ أَكْلَ مَالِ الْيَتِيمِ، وَأَحَلَّ لَوْلِيِّهِ أَنْ يَأْكُلَ بِالْمَعْرُوفِ إِنْ كَانَ فَقِيرًا؛ وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَعْلَمَ الْمَأْمُورَ بِهِ، وَيَسْأَلَ عَنْهُ إِلَى أَنْ يَعْرِفَهُ، وَيَعْلَمَ الْمَنْهَى عَنْهُ، وَيَسْأَلَ عَنْهُ إِلَى أَنْ يَعْرِفَهُ.

وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ بِالمَسْأَلَةِ الْأُولَى، وَهِيَ: مَسْأَلَةُ التَّوْحِيدِ وَالشِّرْكِ.

أَكْثَرُ النَّاسِ عَلِمَ أَنَّ التَّوْحِيدَ حَقٌّ، وَالشِّرْكَ بَاطِلٌ، وَلَكِنْ أَعْرَضَ عَنْهُ، وَلَمْ يَسْأَلْ؛ وَعَرَفَ: أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ الرِّبَا، وَبَاعَ وَاشْتَرَى وَلَمْ يَسْأَلْ؛ وَعَرَفَ: تَحْرِيمَ أَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ، وَجَوَازَ الْأَكْلِ بِالْمَعْرُوفِ؛ وَيَتَوَلَّى مَالِ الْيَتِيمِ وَلَمْ يَسْأَلْ.

الشرح

«إِذَا عَرَفَ الْإِنْسَانُ: أَنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِالتَّوْحِيدِ، وَنَهَى عَنِ الشِّرْكِ، أَوْ عَرَفَ: أَنَّ اللَّهَ أَحَلَّ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا؛ أَوْ عَرَفَ: أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ أَكْلَ مَالِ الْيَتِيمِ، وَأَحَلَّ لَوْلِيِّهِ أَنْ يَأْكُلَ بِالْمَعْرُوفِ إِنْ كَانَ فَقِيرًا؛ وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَعْلَمَ الْمَأْمُورَ بِهِ؛» لَأَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- فَرَضَ عَلَيْهِ التَّوْحِيدَ، وَنَهَاهُ عَنِ الشِّرْكِ، وَحَظَرَهُ عَلَيْهِ، وَلَكِنَّهُ لَا يَبْحَثُ فِي هَذَا الْمَأْمُورِ بِهِ فَيَأْتِي بِالتَّوْحِيدِ الْمُجْمَلِ، وَيَأْتِي أَيْضًا بِالابْتِعَادِ عَنِ الشِّرْكِ مُجْمَلًا، وَهَذَا أَمْرٌ خَطِيرٌ جِدًّا، حَتَّى إِنَّ الَّذِينَ يَقُومُونَ بِالدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ -جَلَّ وَعَلَا- إِذَا دَعَا النَّاسَ إِلَى التَّوْحِيدِ الْمُجْمَلِ لَمْ يُعَانِدْهُمْ أَحَدٌ، وَلَمْ يَجْحَدْ كَلَامَهُمْ أَحَدٌ، وَقَبِلَ كَلَامَهُمْ، لِأَنَّهُ يَأْتِي بِالتَّوْحِيدِ الْمُجْمَلِ وَالْكُلُّ يَشْتَرِكُ فِي هَذَا الْأَمْرِ كَلَامًا.

وكَذَلِكَ إِذَا نَهَى عَنِ الشِّرْكِ مُجْمَلًا مِنْ غَيْرِ تَفْصِيلٍ، فَإِنَّهُ لَا يَجِدُ مَنْ يُعَانِدُهُ وَلَا مَنْ

شرح رسالة: «واجب العبد إذا أمره الله بأمرٍ»

٢١

يَحْمَلُ عَلَيْهِ، وَأَمَّا إِذَا أَخَذَ فِي تَفْصِيلِ التَّوْحِيدِ الَّذِي جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ - تَوْحِيدُ الْعَزِيزِ الْمَجِيدِ -، وَفِي تَفْصِيلِ الشُّرْكِ وَقَعَتِ الْخُصُومَةُ، وَهَذِهِ الْخُصُومَةُ قَامَتْ بَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ وَالْكَافِرِينَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ قَوْمِهِ عِنْدَمَا دَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - بِإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لَوَجْهِهِ الْكَرِيمِ.

فَالْإِنْسَانُ يَنْبَغِي عَلَيْهِ: «أَنْ يَعْلَمَ الْمَأْمُورَ بِهِ، وَيَسْأَلَ عَنْهُ إِلَى أَنْ يَعْرِفَهُ، وَيَعْلَمَ الْمَنْهِيَّ عَنْهُ، وَيَسْأَلَ عَنْهُ إِلَى أَنْ يَعْرِفَهُ، وَاعْتَبِرْ ذَلِكَ بِالسَّأَلِ الْأُولَى، وَهِيَ: مَسْأَلَةُ التَّوْحِيدِ وَالشُّرْكِ.

أَكْثَرُ النَّاسِ عَلِمَ أَنَّ التَّوْحِيدَ حَقٌّ، وَالشُّرْكَ بَاطِلٌ، وَلَكِنْ أَعْرَضَ عَنْهُ، وَلَمْ يَسْأَلْ؛ وَعَرَفَ: أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ الرِّبَا، وَبَاعَ وَاشْتَرَى وَلَمْ يَسْأَلْ؛ وَعَرَفَ: تَحْرِيمَ أَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ، وَجَوَازَ الْأَكْلِ بِالْمَعْرُوفِ؛ وَيَتَوَلَّى مَالِ الْيَتِيمِ وَلَمْ يَسْأَلْ».

الْجَامِعُ لِمَا ذَكَرَهُ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَالْمُنْجِي مِنَ الْوُقُوعِ فِي الْمَحْذُورِ أَنْ يُحَقِّقَ الْعَبْدُ هَذِهِ الْقَاعِدَةَ وَهِيَ: **أَنْ مَا وَجَبَ عَلَيْكَ فِعْلُهُ وَجَبَ عَلَيْكَ تَعَلُّمُهُ**. وَجُوبًا عَيْنِيًّا، وَالْعِلْمُ مِنْهُ مَا هُوَ فَرَضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ، وَمِنْهُ مَا هُوَ فَرَضٌ عَلَى التَّعْيِينِ.

وَكَلَامُ الشَّيْخِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي ذِكْرِ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ تَعَلُّمِ مَا هُوَ فَرَضٌ عَيْنٍ عَلَيْهِ تَعَلُّمُهُ، وَقَدْ قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ كَمَا فِي مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى: «وَطَلَبُ الْعِلْمِ الشَّرْعِيِّ فَرَضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ إِلَّا فِيمَا يَتَعَيَّنُ، مِثْلَ طَلَبِ كُلِّ وَاحِدٍ عَلِمَ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ وَمَا نَهَا عَنْهُ، فَإِنَّ هَذَا فَرَضٌ عَلَى الْأَعْيَانِ».

فَإِذَا عَرَفَ الْإِنْسَانُ أَنَّ اللَّهَ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - أَوْجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يُوحِّدَهُ سُبْحَانَهُ، وَأَلَّا يَشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، فَعَلَيْهِ أَلَّا يَتَوَقَّفَ عِنْدَ حُدُودِ هَذَا الْعِلْمِ الْمُجْمَلِ، وَإِنَّمَا يَنْبَغِي عَلَيْهِ أَنْ يَبْحَثَ،

شرح رسالة: «واجب العبد إذا أمره الله بأمرٍ»

٢٢

وَأَنْ يَسْأَلَ لِيَعْرِفَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- مِنْهُ؟ وَمَا الَّذِي حَظَرَهُ اللَّهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- عَلَيْهِ وَحَرَّمَهُ؟ وَهَذَا فَرَضٌ عَلَى الْأَعْيَانِ، فَهَذَا فَرَضٌ عَيْنٍ عَلَى كُلِّ مُكَلَّفٍ، وَضَرَبَ الشَّيْخُ **رَحِمَهُ اللَّهُ** لِلْمَرْتَبَةِ الْأُولَى وَهِيَ «الْعِلْمُ»، الْأَمْثَالَ.

فَذَكَرَ التَّوْحِيدَ وَالشِّرْكَ، وَأَنَّ الْعَبْدَ إِذَا عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِالتَّوْحِيدِ وَنَهَى عَنِ الشِّرْكِ فَقَدْ وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَسْأَلَ، وَأَلَّا يُعْرِضَ حَتَّى يَعْرِفَ الْمَأْمُورَ فَيَأْتِي بِهِ، وَيَعْرِفَ الْمَحْظُورَ فَيَجْتَنِبَهُ. وَمَا أَمَرَنَا اللَّهُ تَعَالَى بِهِ مِنْ أَمْرٍ فَلَا يُمَكِّنُ الْإِتْيَانُ بِهِ إِلَّا بَعْدَ الْعِلْمِ بِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ **[محمد: ١٩]**.

قَالَ الْبُخَارِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «بَابُ: الْعِلْمُ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ»، وَ«بَابُ»: بِالنَّوَيْنِ؛ لِأَنَّهُ مَقْطُوعٌ عَنِ الْإِضَافَةِ، «وَالْعِلْمُ» مُبْتَدَأٌ «قَبْلَ الْقَوْلِ»، خَبَرُهُ «بَابُ: الْعِلْمُ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ»، فَبَابٌ -كَمَا مَرَّ-: مَقْطُوعٌ عَنِ الْإِضَافَةِ فَتَأْتِي مُنَوَّنَةً، وَهَذَا لِقَوْلِ اللَّهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ **[محمد: ١٩]**، فَذَكَرَ الْعِلْمَ مُقَدِّمًا عَلَى الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ.

وَاسْتَدَلَّ الْبُخَارِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى وَجُوبِ الْبَدَاءَةِ بِالْعِلْمِ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، وَهَذَا دَلِيلٌ أَثَرِيٌّ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ يَعْلَمُ أَوَّلًا ثُمَّ يَعْمَلُ ثَانِيًا، لَا بُدَّ مِنَ الْعِلْمِ أَوَّلًا ثُمَّ يَأْتِي الْعَمَلُ.

وَأَمَّا الدَّلِيلُ الْعَقْلِيُّ: فَهُوَ أَنَّ الْقَوْلَ أَوْ الْعَمَلَ لَا يَكُونُ صَحِيحًا مَقْبُولًا حَتَّى يَكُونَ عَلَى وَفْقِ الشَّرِيعَةِ، عَلَى وَفْقِ مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَعْلَمَ الْإِنْسَانُ أَنَّ عَمَلَهُ عَلَى وَفْقِ الشَّرِيعَةِ إِلَّا بِالْعِلْمِ، فَمِنْ أَيْنَ لَهُ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَتَى بِهِ مِنْ أَمْرٍ هُوَ عَلَى وَفْقِ الشَّرِيعَةِ؟ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ كَذَلِكَ حَتَّى يَكُونَ عَالِمًا بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ.

شرح رسالة: «واجب العبد إذا أمره الله بأمرٍ»

٢٣

والإنسان وإن كان يعلم بفطرته أن الله إله واحد إلا أنه يأتي بأمرٍ قد تُخالف هذا الذي يعلمه، ولا يمكن أن يأتي بما أوجب الله -تبارك وتعالى- عليه من توحيده ونفي الشريك عنه إلا بمعرفة ما أمر الله به من ذلك، من معرفته تعالى بأسمائه وصفاته، وإخلاص العباد لوجهه الكريم، وما وراء ذلك من التفصيل مما فصله الله -تبارك وتعالى- في الكتاب، وعلى لسان النبي ﷺ في الوحي الثاني، وهي سنة النبي ﷺ.

الله تعالى لكمال ألوهيته فرض كيفية العباد ولم يأذن لعباده أن يعبدوه بما يشاءون، وإنما جعل العباد توقيفية، فليس لأحد أن يعبد الله إلا بما شرعه، بل إن الدين كله يدور على هذين القطبين: «ألا يعبد إلا الله وألا يعبد الله إلا بما شرعه»، هذا هو الدين.

وقد قال الرسول ﷺ في أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين: «صلُّوا كما رأيتموني أصلي»^(١). أخرجه البخاري في الصحيح.

وقال ﷺ في حجة الوداع: «خذوا عني مناسككم»^(٢). وهذا أخرجه مسلم في صحيحه.

فلا يمكن أن يأتي العبد بما أمر الله به إلا بالعلم به، ولا يكون ذلك بالعلم به علماً مجملاً لا يكشف حقيقة ما أمر الله به، ومن توقف عند حدود العلم المجمل تورط في المعصية تورطاً، بل اقتحم الشرك اقتحاماً، الذي يتوقف عند حدود العلم المجمل، عند حدود المعرفة بالتوحيد مجملاً من غير تفصيل، وعند معرفة ما نهى الله -تبارك وتعالى- عنه من الشرك مجملاً من غير تفصيل لا بد أن يتورط في الشرك تورطاً، ولا بد أن يقتحم

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٦٣١) من حديث مالك بن الحويرث رضي الله عنه.

(٢) حديث صحيح: أخرجه مسلم (١٢٩٧) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

شرح رسالة: «واجب العبد إذا أمره الله بأمرٍ»

٢٤

المعصية اقتحامًا.

قال الشيخ -رحمه الله تعالى- : «واعتبر ذلك بالمسألة الأولى، وهي: مسألة التوحيد والشرك؛ أكثر الناس علم أن التوحيد حق، والشرك باطل، ولكن أعرض عنه، ولم يسأل».

أقول: فخالف كثير من الناس لأجل ذلك سبيل الموحدين، وسلك كثير من الناس سبيل المشركين.

وقال الشيخ: «وعرف: أن الله حرم الربا، وباع واشترى ولم يسأل».

فأقول: تورط كثير من الناس في الربا تورطًا، وفي المعاملات المحرمة، وأكل أموال الناس بالباطل، لأجل عدم سؤالهم عن حدود ما فرض الله -تبارك وتعالى- عليهم في مثل هذه المعاملات.

وقال الشيخ رحمه الله: «وعرف: تحريم أكل مال اليتيم، وجواز الأكل بالمعروف؛ ويتولى مال اليتيم ولم يسأل».

فأقول: فأكل مال اليتيم على هذا النحو أمر مشهود واقع، فأكل كثير من الناس ممن تولى مال اليتيم، أكل مال اليتيم، وظلم بعضهم نفسه بتحريم ما يحل له أكله بالمعروف، وكل ذلك لأنه لم يسأل عما أوجبه الله -تبارك وتعالى- عليه.

فأول واجب، كما قال الشيخ رحمه الله نحو ما أمرنا الله -تبارك وتعالى- به من أمر أن نعلمه، وإلا فكيف نلتزمه؟!، أمرنا الله رب العالمين بأمر لا يمكن أن نأتي بهذه الأمور إلا إذا علمناها، وإلا فكيف نلتزم بها، فهذا أول واجب نحو ما أمرنا الله -تبارك وتعالى- به.

شرح رسالة: «واجب العبد إذا أمره الله بأمر»

٢٥

فالذي وقع من المخالفة لما أمر الله -تبارك وتعالى- به وقع من عدم العلم بما أمر الله -تبارك وتعالى- به، أعظم ما أمر الله -تبارك وتعالى- به التوحيد، وهو إفراؤ الله بالعبادة؛ أي: أن تعبد الله وحده لا تشرك به شيئاً، لا تشرك به نبياً مُرسلاً، ولا ملكاً مُقرباً، ولا ملكاً، ولا أحداً من الخلق، بل تُفردُه وحده بالعبادة محبةً، وتعظيماً، رغبةً، ورهبةً.

وهذا هو التوحيد الذي بُعثت الرسل لتحقيقه، وهو الذي حصل به الإخلال من أقوامهم، فأولئك الأقوام لم يكونوا مُنكرين أن الله هو الذي خلق السموات والأرض، وهو الذي خلقهم، وهو الذي خلق آلهتهم التي يُشركون بها، لم يكونوا مُنكرين شيئاً من ذلك، وإنما كانوا مُقرّين بأن الله -تبارك وتعالى- هو الخلاق العظيم، وهو الرزاق الكريم، وهو الذي يُدبر الأمر **سُبْحَانَهُ**، ومع ذلك كانوا مُشركين كافرين؛ لأن الذي وقع فيه الإخلال هو صرف العبادة لغير الله -تبارك وتعالى-، هذا هو الذي وقع فيه الإخلال من هؤلاء الأقوام عندما دعاهم الرسل إلى عبادة الله -تبارك وتعالى- وحده.

التوحيد بالمعنى الأعم هو: إفراؤ الله **سُبْحَانَهُ** بما يختص به، وأعظم ما نهى الله -تبارك وتعالى- عنه الشرك؛ وهو دعوة غيره تعالى معه، قال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾ [النساء: ٣٦].

والحاصل: أن العبد يجب عليه علم ما أمره الله تعالى به، فهذه هي المرتبة الأولى من المراتب السبع من مراتب واجباتنا نحو ما أمرنا الله به.



* **المرتبة الثانية:** محبة ما أنزل الله، وكفر من كرهه؛ لقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٩].

فأكثر الناس: لم يحب الرسول، بل أبغضه، وأبغض ما جاء به، ولو عرف أن الله أنزله.

الشرح

وأما المرتبة الثانية: فهي محبة ما أمرنا الله به، إذا علمت ما أمرك الله -تبارك وتعالى- به، وهذا واجب عليك نحو ما أمرك به سبحانه؛ فقد وجب عليك أن تحبه، هذا واجب على العبد أن يحب ما أمره الله تعالى به، فإذا لم يحبه فقد أخل بهذا الواجب الكبير، فيجب علينا أن نعلم ما أمرنا الله به، وأن نحبه ما أمرنا الله -تبارك وتعالى- به. فهناك من يعرف أن الوحي الذي أنزله الله تعالى على رسوله حق، ولكنه يبغضه ولا يحبه، ويعلم أن النبي ﷺ هو رسول الله حقاً وصدقاً ولكنه يبغضه ولا يحبه ﷺ.

وقد بين الله تعالى حال الكافرين الذين باءوا بالانتكاس والخذلان وبطلت أعمالهم لكفرهم ما أنزل الله على نبيه ﷺ؛ قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَّاهُمْ وَأُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ﴾ [محمد: ٨-٩].

فالذين كفروا بربههم ونصروا الباطل هم في تعس؛ أي: في انتكاس من أمرهم وخذلان.

﴿وأضلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾؛ أي: أبطل أعمالهم التي يكيّدون بها الحق، فرجع كيدهم في نحورهم، وبطلت أعمالهم التي يزعمون أنهم يريدون بها وجه الله.

شرح رسالة: «واجب العبد إذا أمره الله بأمر»

٢٧

وذلك الإضلال والتعس للذين كفروا إنما وقع بسبب أنهم كرهوا ما أنزل الله من القرآن الذي أنزله الله صلاحاً للعباد وفلاحاً لهم فلم يقبلوه، بل أبغضوه وكرهوه، فأحبط أعمالهم.

بل أخبر تعالى عن حالة المرتدين عن الهدى والإيمان على أعقابهم إلى الضلال والكفران، وذلك أنهم قد تبين لهم الهدى فزهدوا فيه ورفضوه، ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَلَ اللَّهُ﴾ [محمد: ٢٦]، من المبارزين بالعداوة لله ولرسوله ﷺ: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾؛ أي: في الذي يوافق أهواءهم فكانت عاقبتهم ما ذكره الله تعالى في كتابه العظيم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ ۖ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥].

هؤلاء الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى، ما الذي جعلهم مرتكسين في هذه الحمأة؟

قال ربنا -تبارك وتعالى-: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ ﴿٣٦﴾ فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبرهم ﴿٢٧﴾ ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه، فأحبط أعمالهم ﴿[محمد: ٢٦-٢٨]﴾.

فلا بد من حب ما أمر الله به حباً خالصاً، كما أنه يجب علينا أن نحب النبي ﷺ الذي بلغنا أمر الله تعالى؛ أن نحبه أكثر مما نحب أنفسنا التي بين جنوننا، وسيأتي نفي الإيمان ممن لم يحب النبي ﷺ هذه المحبة، فقد أقسم الله -تبارك وتعالى- بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول ﷺ في جميع الأمور.

شرح رسالة: «واجب العبد إذا أمره الله بأمر»

٢٨

فَمَا حَكَمَ بِهِ فَهُوَ الْحَقُّ الَّذِي يَجِبُ الانْقِيَادُ لَهُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَإِذَا حَكَّمُوهُ فَيَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يُطِيعُوهُ فِي بَوَاطِنِهِمْ، وَلَا يَجْحَدُوا ذَلِكَ الْأَمْرَ بَاطِنًا، وَلَا يَجِدُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا حَكَمَ بِهِ، فَيَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَقَادُوا لَهُ فِي الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ عَلَى السَّوَاءِ، وَأَنْ يُسَلِّمُوا ذَلِكَ تَسْلِيمًا كُلِّيًّا مِنْ غَيْرِ مُمَانَعَةٍ وَلَا مُدَافَعَةٍ وَلَا مُنَازَعَةٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وَهَذَا النَّظْمُ الْقُرْآنِيُّ الشَّرِيفُ يَدُلُّكَ دَلَالَةً عَظِيمَةً جَدًّا لَوْ تَدَبَّرْتَهُ وَتَأَمَّلْتَ فِيهِ وَنَظَرْتَ فِي مَرَامِيهِ، يَدُلُّكَ عَلَى عِظَمِ هَذَا الْأَمْرِ؛ وَهُوَ أَنَّهُ يَنْبَغِي عَلَيْكَ إِذَا جَاءَكَ الْحُكْمُ، أَوْ إِذَا جَاءَكَ الْأَمْرُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ تَكُونَ مُسَلِّمًا عَلَى هَذَا النَّحْوِ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى -.

وَتَأَمَّلْ فِي صَدْرِ الْآيَةِ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، فَأَقْسَمَ بِذَاتِهِ الشَّرِيفَةِ الْمُقَدَّسَةِ، أَقْسَمَ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ الْكَبِيرِ أَنَّهُ لَا يَكُونُ مُؤْمِنًا مَنْ لَمْ يُحْكَمْ النَّبِيُّ ﷺ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْخَلْقِ فِي الْأَرْضِ، ثُمَّ لَا يَجِدُ فِي نَفْسِهِ حَرَجًا مِمَّا قَضَى بِهِ الرَّسُولُ ﷺ وَحَتَّى يُسَلِّمَ تَسْلِيمًا.

لَا يَكْفِي أَنْ يَعْرِفَ الْإِنْسَانُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، لَا يَكْفِي هَذَا حَتَّى يُحِبَّهُ ﷺ، وَحَتَّى يُحِبَّ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ، وَحَتَّى يُوَالِيَهُ وَيَتَّبِعَهُ وَيُعَادِي أَعْدَاءَهُ، وَقَدْ كَانَ الْيَهُودُ يَعْرِفُونَ النَّبِيَّ ﷺ، بِصِفَتِهِ وَحَلِيلَتِهِ، وَكَانُوا مُتَحَقِّقِينَ مِنْ صِدْقِهِ، وَصَدَقَ مَا جَاءَ بِهِ ﷺ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾

[الأنعام: ١١٤].

شرح رسالة: «واجب العبد إذا أمره الله بأمرٍ»

٢٩

إذن؛ ما هو محل النزاع؟

هُم يَعْلَمُونَ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا وَصِدْقًا، بِصِفَتِهِ وَحَلِيَّتِهِ وَشَيْئِهِ ﷺ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ مِنْزَلٌ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَقًّا وَصِدْقًا، يَعْلَمُونَ ذَلِكَ وَيَتَقَنُّونَ مِنْهُ، وَمَعَ ذَلِكَ فَهُمْ كَافِرُونَ بِهِ ﷺ، وَبِمَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُمْ حَسَدُوهُ وَأَبْغَضُوهُ، وَأَبْغَضُوا مَا جَاءَ بِهِ ﷺ، وَكَانَ هَذَا مُفْضِيًّا بِهِمْ إِلَى الْكُفْرِ الَّذِي هُوَ دَامِعٌ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

بَلْ إِنْ رُءِوسَ الْكُفْرِ مِنْ قَوْمِهِ ﷺ لَمْ يَشْكُوا فِي صَدَقِهِ ﷺ وَلَا فِي أَمَانَتِهِ، وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَدَعَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى رَبِّ النَّاسِ ﷺ، وَمَعَ ذَلِكَ عَادُوهُ وَجَحَدُوا مَا جَاءَ بِهِ، فَقَالَ رَبُّنَا -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- فِي شَأْنِهِمْ: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، هُمْ يَعْلَمُونَ صِدْقَ النَّبِيِّ ﷺ.

قَالَ الْمِسُورُ بْنُ خُرْمَةَ رضي الله عنه لِأَبِي جَهْلٍ -وَكَانَ خَالَهُ-: أَيُّ خَالٍ! هَلْ كُنتُمْ تَتَّهَمُونَ مُحَمَّدًا بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَقَالَتُهُ الَّتِي قَالَهَا؟! قَالَ أَبُو جَهْلٍ -لَعَنَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: يَا ابْنَ أَخِي، لَقَدْ كَانَ مُحَمَّدٌ فِينَا -وَهُوَ شَابٌ- يُدْعَى الْأَمِينِ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْهِ كَذِبًا قَطُّ، فَلَمَّا وَخَطَهُ الشَّيْبُ لَمْ يَكُنْ لِيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ! قَالَ: يَا خَالُ فَلِمَ لَا تَتَّبِعُونَهُ؟ قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي تَنَازَعْنَا نَحْنُ وَبَنُو هَاشِمِ الشَّرَفِ، فَأَطَعُمُوا وَأَطَعَمْنَا، وَسَقَوْا وَسَقَيْنَا، وَأَجَارُوا وَأَجَرْنَا، فَلَمَّا تَجَاثَيْنَا عَلَى الرُّكْبِ، وَكُنَّا كَفَرَسِي رِهَانٍ، قَالُوا: مِنَّا نَبِيٌّ، فَمَتَى نُدْرِكَ هَذِهِ؟^(١).

فَمَعْرِفَتُهُ بِصَدَقِهِ فِي أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ لَمْ تَنْفَعْهُ؛ لِأَنَّهُ أَبْغَضَهُ وَحَسَدَهُ، وَلَمْ يُحِبَّهُ فَلَمْ يَقْبَلْ مَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ مِنَ الْهُدَى وَالْخَيْرِ، فَكَانَ لِبُغْضِهِ لِلرَّسُولِ ﷺ مِنَ الْكَافِرِينَ.

وَهَذَا أُمِيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ كَانَ يَنْتَظِرُهُ يَوْمًا يَوْمٍ، وَعَلِمَهُ عِنْدَهُ قَبْلَ مَبْعِثِهِ، وَقَصَّتْهُ

(١) انظر: البداية والنهاية (٣/ ٦٥).

شرح رسالة: «واجب العبد إذا أمره الله بأمر»

٣٠

مَعَ أَبِي سَفْيَانَ لَمَّا سَافَرَا مَعًا مَعْرُوفَةً، وَإِخْبَارُهُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُسْتَفِضٌّ، ثُمَّ لَمَّا تَيَقَّنَهُ وَعَرَفَ صِدْقَهُ قَالَ: لَا أُوْمِنُ بِنَبِيِّ مِنْ غَيْرِ ثَقِيفٍ أَبَدًا؟^(١).

فَمَعْرِفَتُهُ بِأَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَمْ تَنْفَعِهِ لِأَنَّهُ لَمْ يُحِبَّهُ ﷺ، وَلَمْ يُحِبَّ مَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى.

هَذِهِ هِيَ الْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَّةُ: عَرَفُوا صِدْقَ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَنَّهُ غَيْرُ كَاذِبٍ فِيمَا يَقُولُ، وَلَكِنْ عَانَدُوا وَجَحَدُوا بِالْمَعْرِفَةِ، وَلَمْ يُغْنِ عَنْهُمْ مَا عَرَفُوا شَيْئًا.

فَإِذَا قَالَ إِنْسَانٌ: إِنَّهُ لَا يَنْظُرُ فِيمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، وَلَا يُحِبُّ الرَّسُولَ وَلَا يُبْغِضُهُ، وَلَا يُوَالِيهِ وَلَا يُعَادِيهِ، بَلْ هُوَ مُعْرِضٌ عَنْ مُتَابَعَتِهِ وَمُعَادَاتِهِ.

فَمَا حُكْمُ هَذَا؟

والجواب: هَذَا كَفَرٌ كُفِّرَ الْإِعْرَاضُ، هَذَا هُوَ كُفْرُ الْإِعْرَاضِ، بَلْ لَيْسَ عِنْدَهُ إِيْمَانٌ أَصْلًا لِحُلُولِ قَلْبِهِ مِنْهُ.

فَلَا بُدَّ مِنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَحَبَّةِ مَا أَنْزَلَ، وَمَحَبَّةِ الرَّسُولِ ﷺ، وَمَحَبَّةِ مَا جَاءَ بِهِ ﷺ، وَلَا بُدَّ مِنْ تَقْدِيمِ مَحَبَّةِ اللَّهِ، وَمَحَبَّةِ الرَّسُولِ ﷺ، وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ تَعَالَى عَلَى كُلِّ الْمَحَابِّ كَمَا مَرَّ ذِكْرُ ذَلِكَ فِي قَوْلِ رَبَّنَا -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ﴾ [التوبة: ٢٤]

وَتَأَمَّلْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: (أَحَبَّ) فَالنِّزَاعُ فِي الْأَحَبِّ لَا فِي الْحَبِيبَةِ، إِذَا أَخَذَ التَّفْضِيلَ عَلَى أَصْلِهِ، فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُفْضَلَ وَالْمُفْضَلِ عَلَيْهِ قَدْ اشْتَرَكَا فِي أَصْلِ الصِّفَةِ، تَقُولُ: زَيْدٌ

(١) انظر: البداية والنهاية (٢/ ٢٢٢).

شرح رسالة: «واجب العبد إذا أمره الله بأمرٍ»

٣١

أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ عَمْرٍو، فَتُثِبَتِ الْمَحَبَّةُ لِكِلَيْهِمَا، وَلَكِنْ تُثِبَتِ الْمَحَبَّةُ الزَّائِدَةُ لِلْمُفْضَلِ.
 فَاللهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- يَقُولُ: ﴿أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَكُمُ اللَّهُ بِأَمْرٍ. وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾، فَلَا حَرَجَ أَنْ تُحِبَّ هَذِهِ الْمَذْكُورَاتِ، وَلَكِنْ الْحَرَجُ كُلُّ الْحَرَجِ فِي أَنْ تُقَدِّمَ مَحَبَّةَ شَيْءٍ مِنْ تِلْكَ الْمَذْكُورَاتِ عَلَى مَحَبَّةِ اللَّهِ وَمَحَبَّةِ الرَّسُولِ ﷺ.

فالنِّزَاعُ -كَمَا تَرَى- فِي الْأَحَبِّيَّةِ لَا فِي الْحَبِيَّةِ.

وَقَدْ بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ فِي آيَةِ الْامْتِحَانِ أَنَّ كُلَّ مَنْ ادَّعَى مَحَبَّةَ اللَّهِ وَلَيْسَ هُوَ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ النَّبَوِيَّةِ فَإِنَّهُ كَاذِبٌ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، حَتَّى يَتَّبِعَ الشَّرْعَ النَّبَوِيَّ فِي جَمِيعِ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ، قَالَ تَعَالَى فِي آيَةِ الْامْتِحَانِ وَالْاِخْتِبَارِ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]، وَذَلِكَ لِأَنَّ أَقْوَامًا ادَّعَوْا أَنَّهُمْ يُحِبُّونَ اللَّهَ تَعَالَى، فَأَنْزَلَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ هَذِهِ الْآيَةَ اخْتِبَارًا وَابْتِلَاءً وَامْتِحَانًا، فَهَذِهِ الْآيَةُ هِيَ الْمِيزَانُ الَّذِي يُعْرِفُ بِهِ مَنْ أَحَبَّ اللَّهَ حَقِيقَةً، وَمَنْ ادَّعَى ذَلِكَ دَعْوَى مُجَرَّدَةٍ.

فَعَلَامَةُ مَحَبَّةِ اللَّهِ اتِّبَاعُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، الَّذِي جَعَلَ اللَّهُ مُتَابِعَتَهُ، وَجَمِيعَ مَا يَدْعُو إِلَيْهِ طَرِيقًا إِلَى مَحَبَّتِهِ وَرِضْوَانِهِ سُبْحَانَهُ، فَلَا تُنَالُ مَحَبَّةُ اللَّهِ وَرِضْوَانُهُ وَثَوَابُهُ إِلَّا بِتَصَدِيقِ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَامْتِثَالِ أَمْرِهِمَا، وَاجْتِنَابِ نَهْيِهِمَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ أَحَبَّهُ اللَّهُ وَجَزَاهُ جِزَاءَ الْمُحِبِّينَ، وَغَفَرَ لَهُ ذُنُوبَهُ، وَسَتَرَ عَلَيْهِ عُيُوبَهُ.

وَكَأَنَّهُ قِيلَ: وَمَعَ ذَلِكَ فَمَا حَقِيقَةُ اتِّبَاعِ الرَّسُولِ وَمَا صِفَتُهَا؟

شرح رسالة: «واجب العبد إذا أمره الله بأمرٍ»

٣٢

فأجاب بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ [آل عمران: ٣٢]؛ يعني: بامتنال الأمر، واجتناب النهي، وتصديق الخبر، فإن تولّوا عن ذلك فهو الكفر، والله لا يحب الكافرين.

ورسول الله ﷺ هو رسول الله إلى جميع الثقلين الجن والإنس، ولو كان الأنبياء، بل المرسلون، بل أولو العزم منهم في زمانه ﷺ، لما وسعهم إلا اتباعه ﷺ، وما وسعهم إلا أن يدخلوا في طاعته، وأن يتبعوا شريعته، وقد أخذ الله -تبارك وتعالى- عليهم جميعاً الميثاق بذلك.

فلا بد من محبة الرسول ﷺ، ومحبة ما جاء به والرضا به، والتسليم له، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

والنبي ﷺ أولى بكل مؤمن من نفسه، قال ﷺ: «ما من مؤمنٍ إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة، اقرءوا إن شئتم: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾» [الأحزاب: ٦] (١). أخرجه البخاري.

وأخرج مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ: «أنا أولى بكل مؤمن من نفسه» (٢).

وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم؛ حتى أكون أحب إليه من والده، وولده، والناس أجمعين» (٣).

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٤٧٨١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) حديث صحيح: أخرجه مسلم (٨٦٧) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٣) حديث صحيح: أخرجه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

شرح رسالة: «واجب العبد إذا أمره الله بأمر»

٣٣

فذكر الأصول في قوله ﷺ: «من والديه»، وذكر الفروع في قوله ﷺ: «وولده» وذكر الحواشي، كالزوجة والإخوة والأرحام والأصحاب والرفقاء وما أشبه في قوله ﷺ: «والناس أجمعين».

لا يؤمن أحدكم حتى يكون النبي ﷺ أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين. وعند مسلم: «والذي نفسي بيده»، يقسم النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده».

وأخرج البخاري عن عبد الله بن هشام قال: كنا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال له عمر: يا رسول الله، لانت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال النبي ﷺ: «لا، والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك»، فقال عمر: فإنه الآن والله لانت أحب إلي من نفسي. فقال النبي ﷺ: «الآن يا عمر»^(١).

فعلى كل مسلم أن يعرض نفسه على هذا القانون، هل يحب النبي ﷺ أكثر من والده، وولده، والناس أجمعين، ومن نفسه التي بين جنبيه؟ فإن كان ذلك كذلك فيها ونعمت عين، وإن لم يكن فعليه أن يرجع إيمانه لقسم النبي ﷺ.

فمحبته ما أوجب الله علينا فرضها الله علينا، فقد فرض الله عليك أن تحب ما أمرك الله به، لا أن تأتي ما أمرك الله رب العالمين به من أمر وأنت كاره لأمر الله، هذا لا يجوز مطلقاً، بل هذا محرّم تحريراً كبيراً، فيجب عليك أن تعلم ما أمرك الله به، وأن تحب

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٦٦٣٢).

شرح رسالة : « واجب العبد إذا أمره الله بأمر »

٣٤

مَا أَمَرَكَ اللَّهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - بِهِ، لَا بَدَّ مِنَ الْعِلْمِ بِمَا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْنَا، وَلَا بَدَّ مِنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ
الَّذِي أَوْجَبَ عَلَيْنَا مَا أَوْجَبَهُ، وَلَا بَدَّ مِنْ مَحَبَّةِ الرَّسُولِ ﷺ، وَمَحَبَّةِ مَا بَلَّغَهُ عَنْ رَبِّهِ
تَعَالَى.

فَهَذِهِ هِيَ الْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَّةُ مِنْ مَرَاتِبِ وَاجِبِنَا نَحْوَ مَا أَمَرَنَا اللَّهُ بِهِ.



شرح رسالة: «واجب العبد إذا أمره الله بأمرٍ»

٣٥

* المَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ: الْعَزْمُ عَلَى الْفِعْلِ؛ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: عَرَفَ وَأَحَبَّ، وَلَكِنْ لَمْ يَعِزْمُوا؛ خَوْفًا مِنْ تَغْيِيرِ دُنْيَاهُ.

الشرح

وَأَمَّا الْمَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ: فَهِيَ الْعَزْمُ عَلَى الْفِعْلِ، فَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ عَرَفَ وَأَحَبَّ وَلَكِنْ لَمْ يَعِزْمُوا خَوْفًا مِنْ تَغْيِيرِ دُنْيَاهُ.

وهذه المرحلة القلقة المضطربة المضنية فيها كثير جداً من المسلمين؛ فَإِنَّهُمْ عَرَفُوا مَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- بِهِ، وَمَا أَوْجَبَهُ عَلَيْهِمْ وَأَحَبُّوا ذَلِكَ، وَلَكِنَّهُمْ تَخَلَّفُوا عَنِ الْعَزْمِ عَلَى الْفِعْلِ بِمَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، فَوَقَفُوا مُتَرَدِّدِينَ؛ لِأَنَّهُمْ إِذَا عَزَمُوا فَفَعَلُوا وَأَتَوْا مَا أَمَرَ اللَّهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- بِهِ أَضَرَّ ذَلِكَ بِدُنْيَاهُمْ، فَلَأَجْلِ ذَلِكَ تَجَدَّدُوا يَتَرَدَّدُونَ وَاقِفِينَ غَيْرَ عَازِمِينَ عِنْدَ حُدُودِ الْمَرْتَبَةِ الثَّالِثَةِ، يَعْلَمُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، وَيُحِبُّونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَعِزُّونَ عَلَى فِعْلِهِ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ.

فَيَحِبُّ عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَعْرِفَ أَمْرَ اللَّهِ، وَأَنْ يُحِبَّهُ، وَأَنْ يَعِزَّمَ عَلَى الْعَمَلِ بِهِ، وَيَدَعَ الْفُتُورَ وَالْكَسَلَ وَخَوْفَ تَغْيِيرِ الدُّنْيَا عِنْدَ امْتِثَالِ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ.

فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا التَّقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ». قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا الْقَاتِلُ، فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ؟ قَالَ: «إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ» ^(١).

فَهَذَا الْمَقْتُولُ مَعَ أَنَّهُ قُتِلَ وَبَرَقَتْ بَارِقَةُ السَّيْفِ عَلَى رَقَبَتِهِ وَتَحْتَ عَيْنَيْهِ، مَعَ أَنَّهُ قُتِلَ

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٣١)، ومسلم (٢٨٨٨).

شرح رسالة: «واجب العبد إذا أمره الله بأمرٍ»

٣٦

وَذَاقَ مَسَّ الْقَتْلِ وَحَرَّهُ، وَأَزْهَقَ الْقَاتِلُ نَفْسَهُ، وَمَعَ ذَلِكَ هُوَ فِي النَّارِ، لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَعَايَةً لِنِيَّةِ هَذَا الْمَقْتُولِ الْفَاسِدَةِ، وَأَنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ نَزَلَهُ مَنْزِلَةُ الْقَاتِلِ سَوَاءً، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ»، قَالَ: قُلْتُ: فَهَذَا الْقَاتِلُ؛ فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ؟! قَالَ: «إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ».

قَوْلُ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «هَذَا الْقَاتِلُ»؛ يَعْنِي: مَا يُقَالُ فِي الْمُنَاطَرَاتِ؛ هَذَا تَسْلِيمٌ، سَلَّمْنَا أَنَّ الْقَاتِلَ فِي النَّارِ، فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ؟! كَيْفَ يَكُونُ فِي النَّارِ وَهُوَ الْمَقْتُولُ؟ فَقَالَ ﷺ: «إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ».

وَفِي الصَّحِيحِينَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيمَا يَرَوِي عَنْ رَبِّهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ يَبْنِ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِئَةٍ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ، فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ تَعَالَى عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً»^(١).

قَالَ الْحَسَنُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا وَقَفَ عِنْدَ هَمِّهِ؛ يَعْنِي: يَتَفَحَّصُهُ، فَإِنْ كَانَ لِلَّهِ مَضَى، وَإِنْ كَانَ لِغَيْرِ اللَّهِ تَأَخَّرَ»^(٢).

وَشَرَحَ هَذَا بَعْضُهُمْ فَقَالَ: إِذَا تَحَرَّكَ النَّفْسُ لِعَمَلٍ مِنَ الْأَعْمَالِ وَهَمَّ بِهِ الْعَبْدُ، وَقَفَ أَوَّلًا وَنَظَرَ: هَلْ هَذَا الْعَمَلُ مَقْدُورٌ لَهُ أَوْ غَيْرُ مَقْدُورٍ وَلَا مُسْتَطَاعٌ؟ يَعْنِي: هَلْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَأْتِيَ بِهَذَا الْعَمَلِ؟ وَهَلْ هُوَ قَادِرٌ عَلَيْهِ وَمُسْتَطِيعٌ لَهُ أَوْ لَا؟ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَقْدُورًا

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٣١) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٥/٤٥٨).

شرح رسالة: «واجب العبد إذا أمره الله بأمرٍ»

٣٧

مُسْتَطَاعًا لَمْ يُقَدِّمْ عَلَيْهِ أَصْلًا، وَإِنْ كَانَ مَقْدُورًا وَقَفَ وَقْفَةً أُخْرَى وَنَظَرَ: هَلْ فِعْلُهُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ تَرْكِهِ أَوْ تَرْكُهُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ فِعْلِهِ؟ فَإِنْ كَانَ الثَّانِي تَرْكُهُ وَلَمْ يُقَدِّمْ عَلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ الْأَوَّلُ وَقَفَ وَقْفَةً ثَالِثَةً وَنَظَرَ: هَلْ الْبَاعِثُ عَلَيْهِ إِرَادَةٌ وَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى وَثَوَابِهِ؟ أَوْ إِرَادَةُ الْجَاهِ وَالشَّيْءِ وَالْمَالِ مِنَ الْمَخْلُوقِ؟ فَإِنْ كَانَ الثَّانِي لَمْ يُقَدِّمْ عَلَيْهِ، وَإِنْ أَفْضَى بِهِ إِلَى مَطْلُوبِهِ؛ لئَلَّا تَعْتَادَ النَّفْسُ الشَّرْكَ وَيَخَفَّ عَلَيْهَا الْعَمَلُ لِغَيْرِ اللَّهِ، فَيَقْدِرَ مَا يَخَفُ عَلَيْهَا ذَلِكَ يَثْقُلُ عَلَيْهَا الْعَمَلُ لِلَّهِ تَعَالَى حَتَّى يَصِيرَ أَثْقَلَ شَيْءٍ عَلَيْهَا.

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الْحَرَامَ لَا يَجِدُونَ طَعْمَ الْحَلَالِ، وَلَا يُحْسِنُونَ بِهِ، وَأَمَّا الَّذِينَ يَعْتَادُونَ الْحَلَالَ وَيَجْتَنِبُونَ الشَّبَهَاتِ، فَيَجِدُونَ لِلْحَرَامِ مَسَاغًا مُرًّا غَيْرَ مَأْلُوفٍ.

الْإِنْسَانُ إِذَا اعْتَادَ أَمْثَالَ هَذِهِ الْأُمُورِ، خَفَّ عَلَى نَفْسِهِ الْعَمَلُ لِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَبَقْدَرِ مَا يَخَفُ عَلَى نَفْسِهِ ذَلِكَ يَثْقُلُ عَلَى نَفْسِهِ الْعَمَلُ لِلَّهِ تَعَالَى حَتَّى يَصِيرَ أَثْقَلَ شَيْءٍ عَلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ الْأَوَّلُ مِنَ الْأَمْرَيْنِ وَقَفَ وَقْفَةً أُخْرَى وَنَظَرَ: هَلْ هُوَ مُعَانٌ عَلَيْهِ وَلَهُ أَعْوَانٌ يَسَاعِدُونَهُ وَيَنْصُرُونَهُ؟ إِذَا كَانَ الْعَمَلُ مُحْتَاجًا إِلَى ذَلِكَ أَوْ لَا؟ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَعْوَانٌ أَمْسَكَ عَنِ هَذَا الْأَمْرِ، كَمَا أَمْسَكَ النَّبِيُّ ﷺ بِأَمْرِ رَبِّهِ عَنِ الْقِتَالِ جِهَادًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِمَكَّةَ حَتَّى صَارَ لَهُ شَوْكَةٌ وَأَنْصَارٌ، وَإِنْ وَجَدَ أَنَّهُ مُعَانٌ عَلَيْهِ فَلْيُقَدِّمْ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ مَنْصُورٌ، وَلَا يَفُوتُ النِّجَاحُ إِلَّا مَنْ فَوَّتَ خَصْلَةً مِنْ هَذِهِ الْخِصَالِ، وَإِلَّا فَمَعَاجِزٌ تِلْكَ الْخِصَالِ لَا يَفُوتُهُ النِّجَاحُ بِحَالٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

فَهَذِهِ أَرْبَعُ مَقَامَاتٍ يَحْتَاجُ الْعَبْدُ إِلَى مُحَاسَبَةِ نَفْسِهِ عَلَيْهَا قَبْلَ الْعَمَلِ، فَمَا كُلُّ مَا يُرِيدُهُ الْعَبْدُ فَعْلُهُ يَكُونُ فِي اسْتِطَاعَتِهِ، وَلَا كُلُّ مَا يَكُونُ فِي اسْتِطَاعَتِهِ يَكُونُ فَعْلُهُ خَيْرًا لَهُ مِنْ تَرْكِهِ، وَلَا كُلُّ مَا يَكُونُ فَعْلُهُ خَيْرًا مِنْ تَرْكِهِ يَفْعَلُهُ اللَّهُ خَالِصًا، وَلَا كُلُّ مَا يَفْعَلُهُ يَكُونُ مُعَانًا عَلَيْهِ، فَإِذَا حَاسَبَ نَفْسَهُ عَلَى ذَلِكَ تَبَيَّنَ لَهُ مَا يُقَدِّمُ عَلَيْهِ، وَمَا يُحْجِمُ عَنْهُ، فَيَكُونُ

شرح رسالة: «واجب العبد إذا أمره الله بأمرٍ»

٣٨

عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ طَرِيقِهِ، وَعَلَى وَضُوحٍ مِنْ مَنَاجِيهِ.

فَلَا بُدَّ مِنْ عَقْدِ الْقَلْبِ عَلَى فِعْلِ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، هَذِهِ مَرْتَبَةُ الْعَزْمِ عَلَى فِعْلِ الْأَمْرِ
الَّذِي أَمَرَهُ اللَّهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- بِهِ، فَأَتَمَّرَ بِهِ وَأَحْبَبَهُ وَعَزَمَ عَلَى فِعْلِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا
عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

فَالْعَزْمُ: عَقْدُ الْقَلْبِ عَلَى إِمْضَاءِ الْأَمْرِ، يُقَالُ: عَزَمْتُ الْأَمْرَ وَعَزَمْتُ عَلَيْهِ وَاعْتَزَمْتُ،
وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَوَامِرَهُ بِالْعَزْمِ وَالْجِدِّ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَعِجْزِي خُذْ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾
[مريم: ١٢] يعني: بِجِدٍّ وَاجْتِهَادٍ وَعَزْمٍ، لَا كَمَنْ يَأْخُذُ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ بِتَرَدُّدٍ وَفُتُورٍ وَتَوَانٍ.

وَالْهَمُّ أَوَّلُ الْإِرَادَةِ، وَالْهَمَّةُ نَهَايَةُ الْإِرَادَةِ، الْهَمَّةُ أَوَّلُ الْعَزْمِ، وَالْعَزْمُ صِدْقُ الْإِرَادَةِ
وَاسْتِجْمَاعُهَا، وَالْجِدُّ صِدْقُ الْعَمَلِ وَبَذْلُ الْجَهْدِ فِيهِ، وَالنِّيَّةُ وَالْإِرَادَةُ وَالْقَصْدُ وَالْعَزْمُ
عِبَارَاتٌ مُتَوَارِدَةٌ عَلَى مَعْنَى وَاحِدٍ وَهُوَ حَالٌ لِلْقَلْبِ يَكْتَنِفُهُ أَمْرَانِ وَيُحِيطَانِ بِهِ: عِلْمٌ وَعَمَلٌ،
الْعِلْمُ يَقْدُمُهُ؛ لِأَنَّهُ أَصْلُهُ وَشَرْطُهُ، وَالْعَمَلُ يَتْبَعُهُ، لِأَنَّهُ ثَمَرَتُهُ وَفَرْعُهُ، وَالْعَزْمُ بَيْنَهُمَا.

وَقَدْ ذَكَرَ الشَّيْخُ **رَحِمَهُ اللَّهُ** أَنَّ: «كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: عَرَفَ وَأَحَبَّ، وَلَكِنْ لَمْ يَعِزْمْ؛ خَوْفًا
مِنْ تَغْيِيرِ دُنْيَاهُ»، فَنَعَى الشَّيْخَ عَلَى أَقْوَامٍ عَرَفُوا الْحَقَّ وَأَحْبَوْهُ، وَلَمْ يَعِزْمُوا عَلَى فِعْلِهِ خَشْيَةَ
ذَهَابِ الدُّنْيَا؛ مِنَ الْجَاهِ، وَالْمَالِ، وَالْمُلْكِ، وَالسُّلْطَانِ، وَلَمَّا كَانَ الْعَبْدُ مَقْطُوعًا، أَحْيَانًا عَنْ
الْعَمَلِ الصَّالِحِ يَنْوِيهِ وَيَعِزْمْ عَلَيْهِ فَيَحْبِسُهُ عَنْهُ حَابِسٌ، وَيَقْعُدُ بِهِ عَنْهُ عُذْرٌ فَقَدْ كُتِبَ لَهُ
ثَوَابُهُ.

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ أَنَسٍ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قَالَ: رَجَعْنَا مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ مَعَ النَّبِيِّ **ﷺ** فَقَالَ:
«إِنَّ أَقْوَامًا خَلَفْنَا بِالْمَدِينَةِ مَا سَلَكْنَا شِعْبًا وَلَا وَادِيًا إِلَّا وَهُمْ مَعَنَا؛ حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ»^(١).

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٤٤٢٣).

شرح رسالة: «واجب العبد إذا أمره الله بأمر»

٣٩

وَرَوَى مُسْلِمٌ عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صلی اللہ علیہ وسلم فِي غَزَاةٍ فَقَالَ: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ لِرِجَالًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، وَلَا قَطَعْتُمْ وَاِدِيًّا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ، حَبَسَهُمُ الْمَرَضُ».

وَفِي رِوَايَةٍ: «إِلَّا شَرَكُوكُمْ فِي الْأَجْرِ»^(١).

فَهَذَا بِنَيْتِهِمْ وَبِعَزْمِهِمْ وَعَقْدِ قُلُوبِهِمْ مَعَ حُلُولِ الْعُذْرِ بِهِمْ، وَعَدَمِ الْإِسْطَاعَةِ مِنْهُمْ، فَاتَاهُمُ اللَّهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- الثَّوَابُ؛ كَالَّذِينَ وَجَدُوا النَّصَبَ وَالسَّفَرَ وَالْمَشَقَّةَ كَمَا قَالَ الرُّسُولُ صلی اللہ علیہ وسلم، فَإِذَا عَلِمَ الْعَبْدُ أَمْرَ اللَّهِ وَأَحَبَّهُ فَعَلِيهِ أَنْ يَعْقِدَ الْقَلْبَ عَلَى فِعْلِهِ؛ فَهَذَا بِمَا أَوْجَبَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ نَحْوَ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- بِهِ، وَهَذَا الْعَزْمُ عَلَى الْفِعْلِ هُوَ الْمَرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ مِنْ مَرَاتِبِ مَا أَوْجَبَ اللَّهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- عَلَيْنَا مِنَ الْوَاجِبِ نَحْوَ مَا أَمَرَنَا اللَّهُ بِهِ.



(١) حديث صحيح: أخرجه مسلم (١٩١١).

* المرتبة الرابعة: العمل؛ وكثير من الناس: إذا عزم أو عمل وتبين عليه من يعظمه من شيوخ أو غيرهم ترك العمل.

الشرح

أما المرتبة الرابعة: فقد قال الشيخ رحمه الله: «العمل؛ وكثير من الناس: إذا عزم أو عمل وتبين عليه من يعظمه من شيوخ أو غيرهم ترك العمل».

فيأتي بالعمل الذي قد علم أمر الله فيه وأحبه وعزم عليه يأتي به، ولكنه بعد أن يأتي به يتغير عليه بعض من يحبه من شيوخه، وبعض الكبراء ممن يعظمهم، فحينئذ يترك العمل.

العلم بما جاء به الرسول ﷺ من غير عمل به لا يؤدي إلى النجاة، بل هو حجة على صاحبه، بل هو جهل.

يعني: الذي يعلم أمر الله -تبارك وتعالى- ولا يعمل به، هذا جاهل، جاهل جهل العمل.

فالجهل نوعان: عدم العلم بالحق النافع، وعدم العلم بموجبه ومقتضاه.

فعمل المرء هو تحقيق لعلمه، وأما إذا ما تخلف العمل عن العلم فهذا هو جهل العمل، كلاهما جهل لغة وعرفاً، وشرعاً وحقيقة.

قال موسى الكاظمي: «أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين» [البقرة: ٦٧]، لما قال له قومه: «انخذنا هزواً».

وقال يوسف الصديق: «ولا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين» [يوسف:

٣٣]، وكان عالماً بالتحريم، ولكنه صرع إلى ربه -تبارك وتعالى- وتصرع لكي ينفذه من

شرح رسالة: «واجب العبد إذا أمره الله بأمرٍ»

٤١

هذه المحنة الكبيرة، فقال يوسف عليه السلام: ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾؛ يعني: جهل العمل، أي: من مُرتكبي ما حرمت عليّ.

وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ﴾ [النساء: ١٧].

قال قتادة: «أجمع أصحاب رسول الله ﷺ، أن كل ما عصي الله به فهو جهالة»^(١).

وقال غيره: «أجمع الصحابة أن كل من عصي الله فهو جاهل»^(٢).

وسمي عدم مراعاة العلم جهلاً، إمّا لأنه لم ينتفع به فنزل منزلة الجاهل، وإمّا لجهله بسوء ما تجنى عواقب فعله؛ فهو جاهل في الحالين.

والفرار المذكور في قوله تعالى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠]، هو: فرار من الجاهلين.

من الجاهل بالعلم إلى تحصيله اعتقاداً ومعرفةً وبصيرةً.

وفرار من جهل العمل إلى السعي النافع والعمل الصالح قضاءً وسعيًا، وهو الفرار من إجابة داعي الكسل إلى داعي العمل والتشجيع بالجد والاجتهاد، وذلك بصدق العمل وإخلاصه من شوائب الفتور، ووعود التسويف والتهاون، وهو تحت «السّين وسوف وعسى ولعلّ» وهذه أضّر شيء على العبد، وهي شجرة ثمرها الحسرات والندامات، وتخلّف العمل عن العلم صدّ عن سبيل الله؟ الذين يدعون إلى الله -تبارك وتعالى- الناس بالسّنتهم وأقوالهم، وتخلّف أعمالهم هؤلاء ممن يصدّون عن سبيل الله، كما قال العلامة ابن القيم -رحمه الله تعالى-: «علماء السوء جلسوا على

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٣/ ٦٤٠)، وانظر: الدر المنثور للسيوطي (٢/ ٤٥٩).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٣/ ٦٤٠) عن مجاهد.

شرح رسالة: «واجب العبد إذا أمره الله بأمرٍ»

٤٢

بَابِ الْجَنَّةِ يَدْعُونَ النَّاسَ إِلَيْهَا بِأَقْوَاهُمْ: هَلُمُّوا هَلُمُّوا، وَيَدْعُوهُمْ إِلَى النَّارِ بِأَفْعَاهُمْ، فَكُلَّمَا قَالَتْ أَقْوَاهُمْ لِلنَّاسِ: هَلُمُّوا. قَالَتْ أَفْعَاهُمْ: لَا تَسْمَعُوا مِنْهُمْ، فَلَوْ كَانَ مَا دَعَا إِلَيْهِ حَقًّا كَانُوا أَوَّلَ الْمُسْتَجِيبِينَ لَهُ، فَهُمْ فِي الصُّورَةِ -يعني في الصورة الظاهرة- أدلاء، وفي الحقيقة قُطَاعُ الطَّرِيقِ».

الَّذِينَ يَقْطَعُونَ طَرِيقَ الْجَنَّةِ عَلَى السَّالِكِينَ مِنْ أَجْلِ الْوُصُولِ إِلَى رِضْوَانِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

عُلَمَاءُ السُّوءِ قَعَدُوا عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ يَدْعُونَ النَّاسَ إِلَيْهَا بِأَقْوَاهُمْ، وَيَصْدُونِ النَّاسَ عَنْهَا بِأَفْعَاهُمْ، فَهَؤُلَاءِ مِنَ الَّذِينَ يَصْدُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ.

وَمَنْ أَقَامَ حُرُوفَ الْقُرْآنِ، وَكَانَ بَارِعًا فِي تِلَاوَتِهِ، وَلَمْ يَقِفْ مَعَ ذَلِكَ عِنْدَ حَلَالِهِ وَحَرَامِهِ، وَلَمْ يَأْتُمْزْ بِأَمْرِهِ، وَيَنْتَهِي عَنْ نَهْيِهِ، وَتَرَكَ الْعَمَلَ بِهِ، فَهُوَ هَاجِرٌ لِلْقُرْآنِ الْعَظِيمِ. فَكَانَ السَّلَفُ -رَحِمَهُمُ اللَّهُ- يَعْتَبِرُونَ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ لَا بِأَقْوَاهُمْ، وَكُلُّ مَنْ خَالَفَ فَعَلَهُ قَوْلُهُ فَلَا اعْتِبَارَ لَهُ عِنْدَهُمْ.

قَالَ الْحَسَنُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «اعْتَبِرُوا النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ وَدَعُوا أَقْوَاهُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَدْعُ قَوْلًا إِلَّا جَعَلَ عَلَيْهِ دَلِيلًا مِنْ عَمَلٍ يُصَدِّقُهُ أَوْ يُكْذِّبُهُ، فَإِذَا سَمِعْتَ قَوْلًا حَسَنًا فَرُويِدًا بِصَاحِبِهِ، فَإِنْ وَافَقَ قَوْلُ عَمَلًا؛ فَنَعَمْ وَنَعِمْتُ عَيْنٌ؛ أَخِيهِ وَأَحِبِّهِ، وَإِنْ خَالَفَ قَوْلُ عَمَلًا فَمَاذَا يَشْبَهُ عَلَيْكَ مِنْهُ؟! أَمَّاذَا يَخْفَى عَلَيْكَ مِنْهُ؟! إِيَّاكَ وَإِيَّاهُ، لَا يَخْدَعَنَّكَ كَمَا خَدَعَ ابْنُ آدَمَ»^(١).

فَلَا بُدَّ مِنْ مُوَافَقَةِ الْعَمَلِ لِلْعِلْمِ وَالْعِلْمِ لِلْعَمَلِ.

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت برقم (٦٢٦).

شرح رسالة: «واجب العبد إذا أمره الله بأمرٍ»

٤٣

إِنَّ لَكَ قَوْلًا وَعَمَلًا، فَعَمَلُكَ أَحَقُّ بِكَ مِنْ قَوْلِكَ، وَإِنَّ لَكَ سَرِيرَةً وَعَلَانِيَةً، فَسَرِيرَتُكَ أَحَقُّ بِكَ مِنْ عَلَانِيَتِكَ، وَإِنَّ لَكَ عَاجِلَةً وَعَاقِبَةً، فَعَاقِبَتُكَ أَحَقُّ مِنْ عَاجِلَتِكَ.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «إِنَّ النَّاسَ قَدْ أَحْسَنُوا الْقَوْلَ كُلُّهُمْ، فَمَنْ وَافَقَ قَوْلُهُ فِعْلُهُ فَذَلِكَ الَّذِي أَصَابَ حَظَّهُ، وَمَنْ خَالَفَ قَوْلُهُ عَمَلَهُ فَإِنَّمَا يُوبِخُ نَفْسَهُ»^(١).

قال الفضيل رحمه الله: «لَا يَزَالُ الْعَالَمُ جَاهِلًا بِمَا عَلِمَ». وَهَذَا يَبْدُو مُتَنَاقِضًا بَادِي الرَّأْيِ، «لَا يَزَالُ الْعَالَمُ»، فَاتَّبَعْتُ أَنَّهُ عَالِمٌ، ثُمَّ قَالَ: «جَاهِلًا بِمَا عَلِمَ حَتَّى يَعْمَلَ بِهِ؛ فَإِذَا عَمِلَ بِهِ كَانَ عَالِمًا»^(٢).

وَالْأَزْمَةُ الَّتِي يُعَانِيهَا طُلَّابُ الْعِلْمِ خَاصَّةً، وَتُعَانِيهَا الْأُمَّةُ عَامَّةً، إِنَّمَا هِيَ مِنْ الْفَصْلِ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، فَصَارَ هُنَالِكَ كَلَامٌ يُقَالُ فِي الْوَقْتِ عَيْنِهِ عِنْدَنَا عَمَلٌ يُعْمَلُ وَهُوَ عَلَى الضَّدِّ مِمَّا يُقَالُ، فَاسَاءَ النَّاسُ الظَّنَّ بِالذِّينِ وَحَمَلَتْهُمُ الدَّاعِيْنَ إِلَيْهِ.

وَالْأَصْلُ أَنْ يُوَافَقَ الْعِلْمُ الْعَمَلَ فَمِنْ وَاجِبِنَا نَحْوَ مَا أَمَرَنَا اللَّهُ بِهِ: الْعَمَلُ بِهِ، وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَوَّلَ النَّاسِ فِي هَذَا الْأَمْرِ، فَإِنَّهُ مَا أَمَرَ بِشَيْءٍ إِلَّا كَانَ أَسْرَعَ النَّاسِ إِلَيْهِ، وَلَا نَهَى عَنْ شَيْءٍ إِلَّا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ عَنْهُ، وَقَدْ تَعَلَّمَ الصَّحَابَةُ هَذَا الْأَصْلَ الْكَبِيرَ وَعَمِلُوا بِهِ.

فَقَدْ أَخْرَجَ ابْنُ سَعْدٍ فِي «الطَّبَقَاتِ» بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ قَالَ: «إِنَّا أَخَذْنَا الْقُرْآنَ عَنْ قَوْمٍ - يَعْنِي: الصَّحَابَةَ رضي الله عنهم - أَخْبَرُونَا أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا تَعَلَّمُوا عَشْرَ آيَاتٍ لَمْ يُجَاوِزُوهُنَّ إِلَى الْعَشْرِ الْأُخْرَى حَتَّى يَعْلَمُوا مَا فِيهِنَّ وَيَعْمَلُوا بِهِنَّ،

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت برقم (٦٢٧)، وأورده ابن الجوزي في صفة الصفوة (١/٤١٣).

(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٨/٤٢٧).

شرح رسالة: «واجب العبد إذا أمره الله بأمرٍ»

٤٤

فكُنَّا نَتَعَلَّمُ الْقُرْآنَ وَالْعَمَلَ بِهِ»^(١).

هذه هي الطريقة النبوية في التعليم؛ لأنَّ القرآن نَزَلَ مُنْجِمًا عَلَى قَلْبِ النَّبِيِّ الْأَمِينِ ﷺ، وَكَانَ كُلُّ دَرْسٍ إلهيٍّ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ الرَّبَّانِيِّ الْعَظِيمِ الَّذِي هُوَ كَلَامُ رَبِّنَا -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- يَنْزِلُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ يَتَحَوَّلُ إِلَى عَمَلٍ فِي التَّوَّ وَاللَّحْظَةِ، يَلْتَزِمُ بِذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَيَلْتَزِمُ بِذَلِكَ أَصْحَابُهُ -رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ-.

فِيَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَعْلَمَ مَا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَنْ يَعْلَمَ بِمَا أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ، وَأَنْ يُحِبَّهُ، وَأَنْ يَعِزَّزَ عَلَى الْعَمَلِ، وَأَنْ يَعْمَلَ بِهِ عَقِيدَةً وَعِبَادَةً، وَأَخْلَاقًا وَأَدَابًا وَمُعَامَلَةً. وَهَذَا هُوَ ثَمَرَةُ الْعَمَلِ وَنَتِيجَتُهُ.

وَقَدْ صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ كَمَا عِنْدَ مُسْلِمٍ فِي الصَّحِيحِ: «الْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ»^(٢).

لَكَ إِنْ عَمِلْتَ بِهِ، وَعَلَيْكَ إِنْ لَمْ تَعْمَلْ بِهِ.

وَالْعَمَلُ بِمَا صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ يَكُونُ بِتَصْدِيقِ الْأَخْبَارِ وَامْتِثَالِ الْأَحْكَامِ، وَمَنْ وُفِّقَ لِلْعَمَلِ بِمَا أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ فَلَا يَدْعُو الْعَمَلَ لِأَجْلِ أَحَدٍ، فَإِنَّ كَثِيرًا مِمَّنْ عَزَمَ أَوْ عَمِلَ يَدْعُو الْعَمَلَ لِأَجْلِ مَنْ يُعَظِّمُهُ مِنْ شُيُوخٍ أَوْ غَيْرِهِمْ إِذَا تَبَيَّنَ عَلَيْهِ عَزْمُهُ أَوْ عَمَلُهُ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تَطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].

فَبِنَصِّ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ ضَالٌّ مُضِلٌّ؛ كَمَا قَالَ رَبُّنَا -تَبَارَكَ

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (١٧٢/٦).

(٢) حديث صحيح: أخرجه مسلم (٢٢٣) من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

شرح رسالة: «واجب العبد إذا أمره الله بأمرٍ»

٤٥

وتعالى-، والإنسان لا يكون مُضِلًّا حتَّى يكون ضالًّا في نفسه، فيضلُّ أولاً ثمَّ يضلُّ غيره، فأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- بهذا الأمرِ الكبيرِ: ﴿وإن تَطِيعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾.



* المرتبة الخامسة: أَنْ كَثِيرًا مِّنْ عَمَلٍ لَا يَقَعُ عَمَلُهُ خَالِصًا، فَإِنْ وَقَعَ خَالِصًا
لَمْ يَقَعْ صَوَابًا.

الشرح

قَالَ الشَّيْخُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- ذَاكِرًا الْمَرْتَبَةَ الْخَامِسَةَ مِنْ مَرَاتِبِ مَا يَجِبُ عَلَيْنَا نَحْوَ
مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ مِنْ أَمْرٍ، فَإِنَّ مَا أَمَرَنَا اللَّهُ بِهِ مِنْ أَمْرٍ؛ فَقَدْ وَجَبَ عَلَيْنَا نَحْوَ هَذَا الْأَمْرِ الَّذِي
أَمَرَنَا اللَّهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- بِهِ أُمُورٌ، مِنْهَا مَا مَرَّرَ ذِكْرُهُ: «أَنْ كَثِيرًا مِّنْ عَمَلٍ لَا يَقَعُ عَمَلُهُ
خَالِصًا، فَإِنْ وَقَعَ خَالِصًا لَمْ يَقَعْ صَوَابًا».

فَهَذَا ضَمَمَهُ الشَّيْخُ إِلَى مَا مَرَّرَ ذِكْرُهُ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي تَجِبُ عَلَيْكَ نَحْوَ مَا أَمَرَكَ اللَّهُ
رَبُّ الْعَالَمِينَ بِهِ مِنْ أَمْرٍ، كُلُّ أَمْرٍ أَمَرَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بِهِ؛ فَقَدْ وَجَبَ عَلَيْكَ فِيهِ أُمُورٌ:

١- أَنْ تَعْلَمَهُ.

٢- وَأَنْ تُحِبَّهُ.

٣- وَأَنْ تَعَزِّمَ عَلَى الْعَمَلِ بِهِ عَزْمًا مُّوَكَّدًا تَعَقِّدُ عَلَيْهِ قَلْبَكَ.

٤- وَأَنْ تَعْمَلَ بِهِ عَلَى وَفْقِ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ مُخْلِصًا الْوَجْهَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

فَذَكَرَ الشَّيْخُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- شَرْطِي قَبُولِ الْعَمَلِ وَهُمَا: الْإِخْلَاصُ، وَالْمُتَابَعَةُ،
وَهَذَانِ رُكْنَا الْعَمَلِ الْمُتَقَبَّلِ عِنْدَ اللَّهِ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الْعَمَلُ خَالِصًا لِلَّهِ، صَوَابًا عَلَى وَفْقِ
مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

شرح رسالة: «واجب العبد إذا أمره الله بأمرٍ»

٤٧

الْعَمَلُ إِذَا كَانَ خَالِصًا وَلَمْ يَكُنْ صَوَابًا لَمْ يُقْبَلْ، وَإِذَا كَانَ صَوَابًا وَلَمْ يَكُنْ خَالِصًا لَمْ يُقْبَلْ، حَتَّى يَكُونَ خَالِصًا صَوَابًا.

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، فَأَمَرَ اللَّهُ بِأَنْ يَكُونَ الْعَمَلُ صَالِحًا؛ أَي: مُوَافِقًا لِلشَّرْعِ، وَأَمَرَ أَنْ يَقْصِدَ بِهِ صَاحِبُهُ وَجَهَ اللَّهِ تَعَالَى لَا يَتَّبِعِي بِهِ سِوَاهُ.

وَكُلُّ عَمَلٍ لَمْ يَرُدْ بِهِ سُنَّةُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَلَا أَثَرُ فَهُوَ عَمَلٌ مُبْتَدَعٌ، وَهُوَ مَرْدُودٌ عَلَى صَاحِبِهِ، وَكُلُّ عَمَلٍ لَمْ يَرُدْ بِهِ صَاحِبُهُ وَجَهَ اللَّهِ فَهُوَ مَرْدُودٌ أَيْضًا لَا يُقْبَلُ. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ خَالِصًا وَابْتِغَى بِهِ وَجْهَهُ»^(١). أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ.

فَالآنَ فِي الْمَرْتَبَةِ الْخَامِسَةِ، وَهِيَ الَّتِي تَحْكُمُ الْعَمَلُ فِي حَالِ وَقُوعِهِ نِيَّةً وَأَدَاءً، إِذَا عَرَفَ الْعَبْدُ مُرَادَ رَبِّهِ مِنْهُ فِي هَذَا الْأَمْرِ، وَعِلْمُهُ، وَأَحْبَهُ، فَعَزَمَ عَلَى الْإِتْيَانِ بِهِ فَعَمَلُهُ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَعْمَلَهُ عَلَى هَذَا النَّحْوِ وَأَنْ يَقَعَ الْعَمَلُ خَالِصًا لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَحْدَهُ، صَوَابًا عَلَى وَفْقِ مَا جَاءَ بِهِ الرُّسُولُ ﷺ.

قَالَ ﷺ: قَالَ اللَّهُ ﷻ: «أَنَا أَغْنِي الشُّرَكَاءَ عَنِ الشَّرِّ، فَمَنْ عَمِلَ لِي عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ وَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ»^(٢). رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ عَلَى شَرَطِ مُسْلِمٍ.

(١) حديث حسن: أخرجه النسائي (٣١٤٠) من حديث أبي أمامة الباهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٨٥٦).

(٢) حديث صحيح: أخرجه ابن ماجه (٤٢٠٢)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣٤).

شرح رسالة: «واجب العبد إذا أمره الله بأمرٍ»

٤٨

وقد أخرجه مُسلمٌ في صحيحه بنحوه، فروى مُسلمٌ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلّى الله عليه وآله يَقُولُ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشَّرِكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ مَعِيَ فِيهِ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكُهُ» ^(١).

الإخلاص: هو التَّوَقُّي من مُلاحَظَةِ الخَلْق.

والصدق: هو التَّنَقِّي من مُطالعة النَّفْس.

فالمخلص: لَا رِيَاءَ لَهُ.

والصَّادق: لَا إِعْجَابَ لَهُ، وَلَا يَتَمُّ الإِخْلَاصُ إِلَّا بِالصِّدْقِ، وَلَا الصِّدْقُ إِلَّا بِالْإِخْلَاصِ، وَلَا يَتَمَّانِ إِلَّا بِالصَّبْرِ.

فَالْعَمَلُ لَا يَقْبَلُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى حَتَّى يَكُونَ خَالِصًا لَيْسَ لِأَحَدٍ سِوَى اللَّهِ فِيهِ شَيْءٌ، وَقَدْ أَخْبَرَ صلّى الله عليه وآله عَنْ أَوَّلِ ثَلَاثَةِ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ: قَارِئُ الْقُرْآنِ، وَالْمُجَاهِدُ، وَالْمُتَّصِدُّ بِمَالِهِ، الَّذِينَ فَعَلُوا ذَلِكَ لِيُقَالَ: فَلَانٌ قَارِئٌ، فَلَانٌ شُجَاعٌ، فَلَانٌ مُتَّصِدٌّ، وَلَمْ تَكُنْ أَعْمَالُهُمْ خَالِصَةً لِلَّهِ تَعَالَى، وَهَذَا الْحَدِيثُ أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ ^(٢) فِي أَوَّلِ مَنْ تُسَعَّرُ

(١) حديث صحيح: أخرجه مسلم (٢٩٨٥).

(٢) حديث صحيح: أخرجه مسلم (١٩٠٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظه: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ: رَجُلٌ اسْتَشْهَدَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتُ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتَشْهَدْتُ. قَالَ: كَذَبْتَ؛ وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتُ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ. قَالَ: كَذَبْتَ؛ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِتُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ

شرح رسالة: «واجب العبد إذا أمره الله بأمرٍ»

٤٩

بِهِمُ النَّارُ، وَهُمْ مِنْ هَذِهِ الْأَصْنَافِ الشَّرِيفَةِ: مِنْ قَارِي كِتَابِ اللَّهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-، وَمِنْ الْعُلَمَاءِ وَأَيْضًا مِنَ الْمُجَاهِدِينَ، وَمِنْ الْمُتَصَدِّقِينَ الْأَجَوَادِ، وَلَكِنْ لَمْ تَكُنْ أَعْمَاهُمْ خَالِصَةً لِلَّهِ تَعَالَى، فَهُمْ أَوَّلُ مَنْ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ.

قَالَ رَبُّنَا -جَلَّ وَعَلَا- فِي كِتَابِهِ الْعَظِيمِ: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ الْقُلُوبُ مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]، فَاللَّهُ تَعَالَى إِنَّمَا شَرَعَ لَكُمْ هَذِهِ الذَّبَائِحَ مِنَ الْهَدَايَا، وَالضَّحَايَا، لِتَذْكُرُوهُ، وَتَشْكُرُوهُ، وَتُخْلِصُوا لَهُ عِنْدَ ذَبْحِهَا، وَلِيَجْزِيَكُمْ عَلَيْهَا أَحْسَنَ الْجَزَاءِ وَإِلَّا فَهُوَ سُبْحَانَهُ غَنِيٌّ لَا حَاجَةَ لَهُ بِهَذِهِ اللَّحُومِ، وَلَا بِهَذِهِ الدَّمَاءِ، وَإِنَّمَا يُرِيدُ مِنْكُمْ تَقْوَى الْقُلُوبِ، وَيُرِيدُ مِنْكُمْ الْإِخْلَاصَ لَوَجْهِهِ -جَلَّ وَعَلَا-، فَمَنْ تَابَعَ الرَّسُولَ ﷺ وَلَمْ يُخْلِصْ لَمْ تُقَبَّلْ عِبَادَتُهُ، وَمَنْ أَخْلَصَ لِلَّهِ تَعَالَى وَلَمْ يَتَّبِعْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَإِنَّ عِبَادَتَهُ مَرْدُودَةٌ عَلَيْهِ.

وَاعْلَمْ بِأَنَّ الْأَجَرَ لَيْسَ بِحَاصِلٍ إِلَّا إِذَا كَانَتْ لَهُ صِفَتَانِ
لَا بُدَّ مِنْ إِخْلَاصِهِ وَنَقَائِهِ وَخُلُوهٍ مِنْ سَائِرِ الْأَذْرَانِ
وَكَذَا مُتَابَعَةِ الرَّسُولِ فَإِنَّهَا شَرْطٌ بِحُكْمِ نَبِيِّنَا الْعَدْنَانِ

فَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ» (١).

بِهِ فَعَرَفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ. قَالَ: كَذَبْتَ؛ وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُجِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ.

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨).

شرح رسالة: «واجب العبد إذا أمره الله بأمرٍ»

٥٠

وعند مسلم، وعلقه البخاري من روايتها رحمته الله بلفظ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»^(١).

فأحد السياقين يتعلّق بالعمل والآخر يتعلّق بالعمل.

وحديث عائشة رحمته الله هذا نصف العلم، لأن الأعمال إمّا ظاهرة، وإمّا باطنة.

فلأعمال الباطنة ميزانها حديث عمر رضي الله عنه في الصحيحين عن النبي صلّى الله عليه وآله قال: «إمّا الأعمال بالنيّات وإنما لكلّ امرئ ما نوى....»^(٢). الحديث، فهذا ميزان الباطن.

وأما حديث عائشة فميزان الأعمال الظاهرة، «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ». ردّ؛ أي: مردود على صاحبه، غير مقبول منه.

وقوله رحمته الله: «في أمرنا»، المراد به: في ديننا وشرعنا، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

فأمر الله المراد به في هذا الحديث: شرع الله، مَنْ أَحْدَثَ فِي دِينِ اللَّهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-، فِي شَرَعِ اللَّهِ -جَلَّ وَعَلَا- مَنْ أَحْدَثَ فِيهِ مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ، فَلِكَيْ يَكُونَ الْعَمَلُ مَقْبُولًا عِنْدَ اللَّهِ لَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ خَالصًا لِلَّهِ عَلَى وَفْقِ شَرَعِ اللَّهِ، وَمَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صلّى الله عليه وآله.

ذكر الشيخ -رحمه الله تعالى- في هذه المرتبة: «أن كثيرًا من عمل لا يقع عمله خالصًا وإن وقع خالصًا وأراد به وجه الله لم يقع على وفق السنة».

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري تعليقًا في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب إذا اجتهد العامل أو الحاكم فأخطأ، ومسلم (١٧١٨).

(٢) حديث صحيح: أخرجه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧).

شرح رسالة: «واجب العبد إذا أمره الله بأمرٍ»

٥١

كثيرٌ جدًّا من المسلمين الطَّيِّبِينَ يُصَلُّونَ الْعُقُودَ لِلَّهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- مُخْلِصِينَ فِي صَلَاتِهِمْ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ كَيْفَ يُصَلُّونَ، وَيُسيِّئُونَ الصَّلَاةَ، وَالنَّبِيُّ ﷺ قَالَ لِلْمُسِيِّءِ فِي صَلَاتِهِ: «ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ»، فَهَؤُلَاءِ يَتَوَفَّرُ عِنْدَهُمْ شَرْطُ الْإِخْلَاصِ وَيَذْهَبُونَ إِلَى الْمَسَاجِدِ مُبَكِّرِينَ فِي السَّحَرِ الْأَعْلَى، وَيَذْكُرُونَ اللَّهَ كَثِيرًا، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ كَيْفَ يُصَلُّونَ كَمَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَأْمُورُ ﷺ يُصَلِّي، وَهَذَا أَمْرٌ تَنْقَطِعُ فِيهِ الْأَعْذَارُ، لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ وَضَحَ هَذَا الْأَمْرَ تَوْضِيحًا حَتَّى صَلَّى عَلَى الْمِنْبَرِ، ﷺ، فَكَانَ إِذَا كَانَ فِي السُّجُودِ رَجَعَ الْقَهْقَرَى حَتَّى يَنْزِلَ عَنِ الْمِنْبَرِ، ثُمَّ سَجَدَ فِي أَصْلِهِ، ثُمَّ إِذَا مَا رَفَعَ مِنَ السُّجُودِ صَعِدَ الْمِنْبَرَ مَرَّةً أُخْرَى، حَتَّى يَرَاهُ كُلُّ مَنْ فِي الْمَسْجِدِ مِنْ أَصْحَابِهِ، يَقُولُ: «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي»^(١).

فَلَا يَكْفِي أَنْ يَكُونَ الْعَمَلُ خَالِصًا لِلَّهِ حَتَّى يَكُونَ صَوَابًا عَلَى وَفْقِ مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ، وَهَذَا هُوَ مَا ذَكَرَهُ الشَّيْخُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- فِي هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ.

كُلُّ مَا أَمَرَكَ اللَّهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- بِهِ مِنْ أَمْرٍ فَاَنْظُرْ فِيهِ مِنْ خِلَالِ هَذِهِ الْمَرَاتِبِ، عَلَيْكَ أَنْ تَعْلَمَهُ، فَالْعِلْمُ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [محمد: ١٩]، وَهَذِهِ الْآيَةُ اسْتَدَلَّ الْبُخَارِيُّ فِي الصَّحِيحِ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- عَلَى أَنَّ الْعِلْمَ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ.

فَإِذَا مَا عَلِمْتَ مَا أَمَرَكَ اللَّهُ بِهِ وَأَحْطَتَ بِهِ عِلْمًا؛ فَأَحْبَبُهُ، لَا بَدَّ أَنْ تُحِبَّهُ، وَاجِبٌ عَلَيْكَ أَنْ تُحِبَّ مَا أَمَرَكَ اللَّهُ بِهِ، فَلَا تَأْتِي مَا أَمَرَكَ اللَّهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- بِهِ وَأَنْتَ كَارَهُ، بَلْ تُحِبُّ مَا أَمَرَكَ اللَّهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- بِهِ مِنْ أَمْرٍ، ثُمَّ تَعِزُّمُ عَلَى الْإِتْيَانِ بِهِ، ثُمَّ تَفْعَلُ هَذَا الَّذِي أَمَرَكَ

(١) حديث صحيح: تقدم تخريجه (ص ٢٣).

شرح رسالة: «واجب العبد إذا أمره الله بأمرٍ»

٥٢

الله - تبارك وتعالى - به، ثم إذا ما فعلته فليقع منك هذا العمل خالصاً لله - تبارك وتعالى - ليس لأحد فيه نصيب، فتخلص لله - تبارك وتعالى - فيه إخلاصاً، ثم تأتي به صواباً؛ يعني: تأتي به على وفق ما أمر به النبي ﷺ.

وهذه هي المراتب التي مر ذكرها.



* المرتبة السادسة: أَنَّ الصَّالِحِينَ يَخَافُونَ مِنْ حُبُوطِ الْعَمَلِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَنْ تَحْبُطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢]. وَهَذَا مِنْ أَقَلِّ الْأَشْيَاءِ فِي زَمَانِنَا.

الشرح

وَأَمَّا الْمَرْتَبَةُ السَّادِسَةُ مِنْ مَرَاتِبِ مَا يَحِبُّ عَلَيْنَا إِذَا أَمَرَنَا اللَّهُ بِأَمْرٍ فَهِيَ: مَرْتَبَةُ الْخَوْفِ مِنْ حُبُوطِ الْعَمَلِ بَعْدَ وَقْعِهِ، فَقَالَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: «إِنَّ الصَّالِحِينَ يَخَافُونَ مِنْ حُبُوطِ الْعَمَلِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَنْ تَحْبُطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢]؛ فَيَحْبُطُ عَلَيْكَ عَمَلُكَ وَأَنْتَ لَا تَشْعُرُ.

وَهَذَا كَمَا قَالَ الشَّيْخُ: «مِنْ أَقَلِّ الْأَشْيَاءِ فِي زَمَانِنَا».

هَذَا مِنْ أَقَلِّ الْأَشْيَاءِ؛ أَنْ تَخَافَ أَنْ يَحْبُطَ عَمَلُكَ، هَذَا لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ إِلَّا مَنْ وَفَّقَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَنَوَّرَ بَصِيرَتَهُ، وَمَا ذَكَرَهُ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ مِنْ مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ بَعْدَ الْعَمَلِ ثَلَاثَةَ أَنْوَاعٍ:

أَحَدُهَا: مُحَاسَبَتُهَا عَلَى طَاعَةٍ قَصَّرَتْ فِيهَا مِنْ حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى، فَلَمْ تَأْتِ بِهَا عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَنْبَغِي، وَهَذَا مَا لَحْظُهُ مِنْ لَحْظِهِ مِنْ أَكَابِرِ عُلَمَائِنَا -رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ- فِي النَّظَرِ فِي الْحِكْمَةِ وَالتَّعْلِيلِ لِفِعْلِ النَّبِيِّ ﷺ وَقَوْلِهِ بَعْدَ أَنْ يَفْرَغَ مِنَ الصَّلَاةِ، فَإِنَّهُ كَانَ إِذَا فَرَّغَ مِنَ الصَّلَاةِ ﷺ، اسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا، فَهَذَا يُثِيرُ سُؤَالَ: هَذِهِ طَاعَةٌ، بَلْ هِيَ أَجَلُ الطَّاعَاتِ لِلَّهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- بَعْدَ التَّوْحِيدِ، وَالْإِتْيَانُ بِأَعْظَمِ الْأَرْكَانِ بَعْدَ الشَّهَادَتَيْنِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ إِذَا فَرَّغَ مِنَ الصَّلَاةِ ﷺ كَانَ يَسْتَغْفِرُ رَبَّهُ ثَلَاثًا.

شرح رسالة: «واجب العبد إذا أمره الله بأمرٍ»

٥٤

فَقَالَ الْعُلَمَاءُ -عَلَيْهِمُ الرَّحْمَةُ-: إِنَّ ذَلِكَ رِعايَةٌ لِلْقُصُورِ وَالتَّقْصِيرِ الَّذِي وَقَعَ فِيهَا، وَلِأَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَأْتِيَ بِمَا أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ عَلَى النَّحْوِ الَّذِي أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَقَعَ مِنْهُ مِنَ التَّقْصِيرِ بِحَسَبِهِ، فَالْإِنْسَانُ يَخَافُ مِنْ حُبُوطِ الْعَمَلِ بَعْدَ وَقُوعِهِ، وَيَدْخُلُ فِي مُحَاسِبَةِ النَّفْسِ عَلَى هَذِهِ الْمَرَاتِبِ، فَأَحَدُ تِلْكَ الْمَرَاتِبِ فِي مُحَاسِبَةِ النَّفْسِ بَعْدَ الْعَمَلِ أَنْ يُحَاسِبَهَا عَلَى الطَّاعَةِ الَّتِي قَصَّرَتْ فِيهَا مِنْ حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى، فَلَمْ تَأْتِ بِهَا عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَنْبَغِي.

وَحَقُّ اللَّهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- فِي الطَّاعَةِ سِتَّةُ أُمُورٍ، وَهِيَ:

- ١- الإِخْلَاصُ فِي الْعَمَلِ.
 - ٢- وَالنَّصِيحَةُ لِلَّهِ فِيهِ.
 - ٣- وَمُتَابَعَةُ الرُّسُولِ ﷺ فِيهِ.
 - ٤- وَشُهُودُ مَشْهَدِ الْإِحْسَانِ فِيهِ، وَأَنَّهُ لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- أَحْسَنَ إِلَيْكَ وَوَفَّقَكَ مَا أَتَيْتَ بِهِ، فَلَا تَلَحِظُ لِنَفْسِكَ فَضْلاً، وَلَا تَلَحِظُ لِنَفْسِكَ أَضْلاً.
 - ٥- وَشُهُودُ مَنَّةِ اللَّهِ عَلَيْكَ.
 - ٦- وَشُهُودُ تَقْصِيرِكَ فِي هَذَا الْعَمَلِ بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ.
- فَهَذِهِ الْأُمُورُ هِيَ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ يَأْتِيَ بِهَا الْإِنْسَانُ حَقًّا لِلَّهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- فِي كُلِّ طَّاعَةٍ، يُحَاسِبُ نَفْسَهُ: هَلْ وَفَّى هَذِهِ الْمَقَامَاتِ حَقَّهَا؟! وَهَلْ أَتَى بِهَا فِي هَذِهِ الطَّاعَةِ أَوْ لَمْ يَأْتِ بِهَا؟

وَالثَّانِي: أَنْ يُحَاسِبَ نَفْسَهُ عَلَى كُلِّ عَمَلٍ كَانَ تَرْكُهُ خَيْرًا لَهُ مِنْ فِعْلِهِ، فَإِذَا فَعَلَهُ وَوَقَعَ وَكَانَ تَرْكُهُ خَيْرًا مِنْ فِعْلِهِ يُحَاسِبُ نَفْسَهُ بَعْدُ، وَلِمَاذَا فَعَلْتَهُ؟ لَا بُدَّ أَنْ يُحَاسِبَ نَفْسَهُ

شرح رسالة: «واجب العبد إذا أمره الله بأمرٍ»

٥٥

عَلَى هَذَا الْعَمَلِ الَّذِي كَانَ تَرْكُهُ خَيْرًا لَهُ مِنْ فِعْلِهِ.

وَالثَّالِثُ: أَنْ يُحَاسِبَ نَفْسَهُ عَلَى أَمْرٍ مُبَاحٍ أَوْ مُعْتَادٍ: لِمَ فَعَلَهُ؟ وَهَلْ أَرَادَ بِهِ اللَّهُ وَالِدَارَ الْآخِرَةَ فَيَكُونُ رَابِحًا، أَوْ أَرَادَ بِهِ الدُّنْيَا وَعَاجِلَهَا فَيَخْسِرَ ذَلِكَ الرَّبْحَ وَيَفُوتَهُ الظَّفَرُ بِهِ؟! فَيَسْأَلُ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ مُحَاسِبًا إِيَّاهَا عَلَى هَذَا النَّحْوِ بِهَذِهِ الْمَرَاتِبِ.

مُحِبَّاتُ الْأَعْمَالِ وَمُفْسِدَاتُهَا أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَى، وَلَيْسَ الشَّأْنُ فِي الْعَمَلِ إِنَّمَا الشَّأْنُ فِي حِفْظِ الْعَمَلِ مِمَّا يُفْسِدُهُ وَيُحِبِّطُهُ، فَالرَّيَاءُ -وإنْ دَقَّ- مُحِبُّ لِلْعَمَلِ، وَهُوَ أَبْوَابُ كَثِيرَةٌ لَا تُحْصَى، وَكَوْنُ الْعَمَلِ غَيْرَ مُقَيَّدٍ بِالسُّنَّةِ مُوجِبٌ لِكَوْنِهِ بَاطِلًا، وَالْمَنْ بِالْعَمَلِ عَلَى اللَّهِ بِالْقَلْبِ مُفْسِدٌ لَهُ، وَكَذَلِكَ الْمَنْ بِالصَّدَقَةِ وَالْمَعْرُوفِ وَالْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ وَالصَّلَةِ مُفْسِدٌ لَهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُبْطِلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٤].

فَهَذَا بَابٌ قَلٌّ مَنْ يَفْطُنْ إِلَيْهِ وَيَتَنَبَّهُ لَهُ، هَذَا بَابٌ كَبِيرٌ فَمَا أَكْثَرَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ الْكَبِيرَةَ الْجَلِيلَةَ يَمْنُونَ عَلَى اللَّهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- بِقُلُوبِهِمْ بِتِلْكَ الْأَعْمَالِ وَبِإِتْيَانِهَا، أَوْ يَتَصَدَّقُونَ الصَّدَقَاتِ ثُمَّ يَمْنُونَ بِتِلْكَ الصَّدَقَاتِ فَيُطْلَوْنَهَا كَمَا قَالَ اللَّهُ -جَلَّ وَعَلَا-.

إِذَنْ؛ لَيْسَتْ الْعِبْرَةُ فِي الْعَمَلِ، وَإِنَّمَا الْعِبْرَةُ فِي حِفْظِ الْعَمَلِ مِمَّا يُحِبِّطُهُ وَيُبْطِلُهُ وَيُفْسِدُهُ بَعْدَ أَنْ وَقَعَ صَحِيحًا فَيَكُرُّ عَلَيْهِ بِجَيْشِ الْإِبْطَالِ وَالْإِفْسَادِ عَلَى هَذَا النَّحْوِ حَتَّى يَفْسَدَ عَلَيْهِ الْعَمَلُ وَيَحْبِطَ.

أَكْثَرُ النَّاسِ مَا عِنْدَهُمْ خَبَرٌ مِنَ السَّيِّئَاتِ الَّتِي تُحِبِّطُ الْحَسَنَاتِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ، بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢]، فَقَدْ يَحْبِطُ الْعَمَلُ وَأَنْتَ لَا تَشْعُرُ، وَيَبْطُلُ هَذَا الْعَمَلُ الَّذِي قَدْ عَمِلْتَهُ وَتَكَلَّفْتَ فِيهِ وَأَنْتَ لَا تَدْرِي، فَأَكْثَرُ النَّاسِ مَا عِنْدَهُمْ

شرح رسالة: «واجب العبد إذا أمره الله بأمر»

٥٦

خَبَرٌ مِنَ السَّيِّئَاتِ الَّتِي تُحْبِطُ الْحَسَنَاتِ، وَقَدْ حَذَّرَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْ حُبُوطِ أَعْمَالِهِمْ بِالْجَهْرِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَمَا يَجْهَرُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، فَإِنْ فَعَلُوا حَبِطَ عَمَلُهُمْ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ، وَلَيْسَ هَذَا بِرَدَّةٍ، بَلْ هَذِهِ مَعْصِيَةٌ تُحْبِطُ الْعَمَلَ وَصَاحِبُهَا لَا يَشْعُرُ بِهَا.

فَمَا الظَّنُّ -أي: إِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ- بِمَنْ قَدَّمَ عَلَى قَوْلِ الرَّسُولِ ﷺ وَهَدِيهِ وَطَرِيقِهِ قَوْلَ غَيْرِهِ وَهَدِيهِ وَطَرِيقِهِ؟!

مَا الظَّنُّ بِمَنْ كَانَ كَذَلِكَ؟!

إِذَا كَانَ رَفَعُ الصَّوْتِ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ كَرَفَعِ صَوْتِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ يُحْبِطُ الْعَمَلَ مِنْ غَيْرِ شُعُورٍ مِمَّنْ حَبِطَ عَمَلُهُ، فَكَيْفَ بِمَنْ يُقَدِّمُ الْقَوْلَ عَلَى قَوْلِ الرَّسُولِ؟! وَالْهَدْيَ عَلَى هَدْيِ الرَّسُولِ؟! وَالْمَنْهَاجَ عَلَى مَنْهَاجِ الرَّسُولِ؟! وَالطَّرِيقَ عَلَى طَرِيقِ الرَّسُولِ ﷺ؟ أَلَيْسَ هَذَا قَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ؟!

فَمَعْرِفَةُ مَا يُفْسِدُ الْأَعْمَالَ فِي حَالِ وَقُوعِهَا، وَمَا يُبْطِلُهَا وَيُحْبِطُهَا بَعْدَ وَقُوعِهَا، مِنْ أَهَمِّ مَا يَنْبَغِي أَنْ يُفْتَشَّ عَلَيْهِ الْعَبْدُ، وَيَحْرِصَ عَلَى عِلْمِهِ وَيَحَذَرُهُ، وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى الَّذِينَ يُعْطُونَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، فَمَا أُمِرُوا بِهِ مِنْ أَمْرِ أَتَوْا بِمَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ مِنْهُ، مِنْ صَلَاةٍ، وَزَكَاةٍ، وَحَجٍّ، وَصَدَقَةٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَمَعَ هَذَا فَقُلُوبُهُمْ خَائِفَةٌ عِنْدَ عَرْضِ الْأَعْمَالِ عَلَى اللَّهِ وَالْوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيْهِ، أَنْ تَكُونَ أَعْمَالُهُمْ غَيْرَ مُنْجِيَةٍ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى، لِعِلْمِهِمْ بِرَبِّهِمْ، وَمَا يَسْتَحِقُّهُ مِنْ أَصْنَافِ الْعِبَادَاتِ، وَمَا فِي أَعْمَالِهِمْ مِنْ قُصُورٍ وَتَقْصِيرٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

أَخْرَجَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾، هُوَ الَّذِي يَسْرِقُ وَيَزْنِي وَيَشْرِبُ الْخَمْرَ وَهُوَ يَخَافُ اللَّهَ ﷻ قَالَ: «لَا، يَا بِنْتَ الصَّدِّيقِ، لَا يَا بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ، وَلَكِنَّهُ الَّذِي يَصِلِّي وَيُصُومُ وَيَتَصَدَّقُ وَهُوَ يَخَافُ اللَّهَ

شرح رسالة: «واجب العبد إذا أمره الله بأمرٍ»

٥٧

وَعَلَّاهُ .

وهكذا رواه الترمذي وقال: «لَا، يَا بِنْتَ الصَّدِيقِ، وَلَكِنَّهُمْ الَّذِينَ يُصَلُّونَ، وَيُصُومُونَ، وَيَتَصَدَّقُونَ وَهُمْ يَخَافُونَ أَلَّا يُقْبَلَ مِنْهُمْ»^(١). ورواه ابن ماجه وإسناده حسن.

فَوَصَفَ اللَّهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- هَؤُلَاءِ الْخَاشِعِينَ مِنْ أَهْلِ الْخَشْيَةِ وَأَتَمَّ يُصَلُّونَ، وَيُصُومُونَ، وَيَتَصَدَّقُونَ، وَيَفْعَلُونَ الْخَيْرَ وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَتَمَّ إِذَا عَرَضُوا عَلَى اللَّهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- وَنُظِرَ فِي تِلْكَ السَّرَائِرِ وَجَدَ أَنَّ الْعَمَلَ بِدَوَافِعِهِ لَمْ يَكُنْ خَالِصًا لِلَّهِ، فَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ مَعَ أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ الْعَظِيمَةِ، لَا كَمَا رَأَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَصَوَّبَ لَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَرَوَى ابْنُ مَاجَهَ عَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ كَأَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بَيْضًا، فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ وَعَلَّاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا» قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، صِفْهُمْ لَنَا، حَلِّهِمْ لَنَا، وَفِي رِوَايَةٍ: جَلِّهِمْ لَنَا -أَمَّا بِالْإِعْجَامِ فَمِنْ التَّجْلِيَةِ، وَهِيَ كَشَفُ حَالِهِمْ، وَأَمَّا: حَلِّهِمْ؛ يَعْنِي: اذْكُرْ لَنَا حَلِيَّتَهُمْ وَصِفَتَهُمْ حَتَّى نَعْرِفَهُمْ، وَالْمَعْنَى قَرِيبٌ مِنْ قَرِيبٍ-؛ أَلَّا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ. قَالَ: «أَمَّا إِيَّاهُمْ إِخْوَانُكُمْ وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ؛ -يَعْنِي: وَمِنْ جِنْسِكُمْ-، وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ؛ وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا»^(٢).

هَذَا الْحَدِيثُ حَدِيثٌ مَخُوفٌ جِدًّا، مُفْطَعٌ حَقًّا، وَفِيهِ أَنَّ أَقْوَامًا يَنْصَبُونَ هَذَا النَّصَبَ، وَيَأْتُونَ بِهَذَا الْعَمَلِ الْكَبِيرِ الَّذِي وَصَفَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنَّهُ حَسَنَاتٌ كَأَمْثَالِ جِبَالِ

(١) حديث صحيح: أخرجه أحمد (٢٤٧٣٥)، والترمذي (٣١٧٥)، وابن ماجه (٤١٩٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٦٢).

(٢) حديث صحيح: تقدم تخريجه (ص ١٨).

شرح رسالة: «واجب العبد إذا أمره الله بأمرٍ»

٥٨

تِهَامَةٌ بَيْضًا، وَجِبَالٌ تِهَامَةٌ سِلْسِلَةٌ مِنَ الْجِبَالِ فِي أَرْضِ الْحِجَازِ، وَهِيَ مُتَدَّةٌ امْتِدَادًا كَبِيرًا طَوِيلًا، فَيَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ كَأَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةٍ بَيْضًا، فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ هَبَاءً مَنْثُورًا»، مَا الْعِلَّةُ؟

الْعِلَّةُ: أَنَّ هَؤُلَاءِ عِنْدَهُمْ رِقَّةٌ فِي الدِّينِ، وَعِنْدَهُمْ ضَعْفٌ فِي الْيَقِينِ، وَأَتَمُّهُمْ لَا يُرَاقِبُونَ اللَّهَ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- حَقَّ الرِّقَابَةِ، فَإِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا، وَأَعْمَاهُمْ بَعْدُ كَمَا وَصَفَ الرُّسُولُ ﷺ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ شَيْئًا، بَلْ جَعَلَهَا اللَّهُ تَعَالَى هَبَاءً مَنْثُورًا.

الْأَمْرُ جِدٌّ لَا هَزْلَ فِيهِ، وَعَلَى الْعَبْدِ أَنْ يُرَاقِبَ قَلْبَهُ، وَأَنْ يُرَاعِيَ ضَمِيرَهُ، وَأَنْ يَجْتَهِدَ فِي تَحْقِيقِ الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ تَعَالَى، وَفِي تَحْقِيقِ الْمُتَابَعَةِ لِلنَّبِيِّ ﷺ، لِأَنَّهُ لَا نَجَاةَ إِلَّا بِتَجْرِيدِ التَّوْحِيدِ لِلْعَزِيزِ الْمَجِيدِ، وَبِتَجْرِيدِ الْمُتَابَعَةِ لِلْمَعْصُومِ ﷺ.

فَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَتَوْا بِتِلْكَ الْأَعْمَالِ الْعَظِيمَةِ مِنَ الْحَسَنَاتِ كَأَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةٍ بَيْضًا، لَمْ يَحْفَظُوهَا مِنَ الْفَسَادِ، وَعَدَّوْا عَلَيْهَا بِالْإِفْسَادِ، فَجَعَلَهَا اللَّهُ تَعَالَى هَبَاءً مَنْثُورًا.

وَحَفِظُوا الْعَمَلَ مِمَّا يُحِبُّهُ وَيُفْسِدُهُ عَزِيزٌ نَادِرٌ، كَمَا قَالَ الشَّيْخُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- فِي هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ: «وَهَذَا مِنْ أَقَلِّ الْأَشْيَاءِ فِي زَمَانِنَا».

أَقَلُّ النَّاسِ مَنْ يَفْعَلُ الْفِعْلَ الْحَسَنَ الصَّالِحَ ثُمَّ يُرَاقِبُ هَذَا الْعَمَلَ حَتَّى لَا يَحْبَطَ، وَكَثِيرٌ جِدًّا مِنَ النَّاسِ يَأْتُونَ الصَّالِحَاتِ ثُمَّ يَكْرَهُونَ عَلَيْهَا بَعْدَ ذَلِكَ بِجَيْشٍ -بَلْ بِجُيُوشٍ- الْإِفْسَادِ وَالْإِبْطَالِ، وَهَذَا أَمْرٌ فِي الْحَقِيقَةِ لَا يَأْتِي إِلَّا مِنَ السُّفَهَاءِ، وَلَوْ أَنَّ هَؤُلَاءِ نَوَّرَ اللَّهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- بَصَائِرَهُمْ، وَاتَّبَعُوا النَّبِيَّ ﷺ، ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، لَكَانُوا أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى مَا بَذَلُوا فِيهِ الْجُهْدَ وَأَنْفَقُوا فِيهِ الْأَمْوَالَ، وَيَخَافُونَ أَنْ تُحْبَطَ تِلْكَ الْأَعْمَالُ كَمَا يَبَيِّنُ ذَلِكَ رَبُّنَا -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- فِي كِتَابِهِ، وَنَبَيُّنَا ﷺ فِي صَحِيحِ سُنَّتِهِ.

شرح رسالة: «واجب العبد إذا أمره الله بأمرٍ»

٥٩

فَالْخَوْفُ مِنْ حُبُوطِ الْأَعْمَالِ بَعْدَ وَقُوعِهَا مِنَ الْوَاجِبَاتِ الَّتِي نَحْبُ عَلَيْنَا نَحْوَ مَا كَلَّفَنَا اللَّهُ تَعَالَى بِهِ.

إِذَا عَرَفْتَ هَذَا، وَعَرَفْتَ أَنَّ هَذَا وَاجِبٌ عَلَيْكَ فِي كُلِّ أَمْرٍ أَمَرَكَ اللَّهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- بِهِ، وَهُوَ أَنْ تَحْذَرَ أَنْ يَحْبُطَ الْعَمَلُ بَعْدَ أَنْ يَقَعَ، وَأَنَّ هَذَا وَاجِبٌ عَلَيْكَ أَوْجِبَهُ اللَّهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- عَلَيْكَ نَحْوَ كُلِّ أَمْرٍ أَمَرَكَ اللَّهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- بِهِ، لَوْ أَنَّكَ عَرَفْتَ هَذَا وَتَيَقَّنْتَهُ لَتَغَيَّرَتْ مَسِيرَةُ الْحَيَاةِ وَلَأُعِيدَتْ صِيَاغَتُهَا بَعْدُ.



* **الْمُرْتَبَةُ السَّابِعَةُ: الثَّبَاتُ عَلَى الْحَقِّ وَالْخَوْفُ مِنْ سُوءِ الْخَاتِمَةِ؛ لِقَوْلِهِ ﷺ: «إِنَّ مِنْكُمْ مَنْ يَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَيُحْتَمُّ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ».**
 وَهَذِهِ أَيْضًا: مِنْ أَعْظَمَ مَا يَخَافُ مِنْهُ الصَّالِحُونَ؛ وَهِيَ قَلِيلٌ فِي زَمَانِنَا؛ فَالْتَفَكُّرُ فِي حَالِ الَّذِي تَعْرِفُ مِنَ النَّاسِ، فِي هَذَا وَغَيْرِهِ، يَدُلُّكَ عَلَى شَيْءٍ كَثِيرٍ تَجْهَلُهُ؛ وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الشرح

فذكر الشيخ -رحمه الله تعالى- المرتبة السابعة من مراتب الواجب علينا نحو ما أمرنا الله -تبارك وتعالى- به من أمر، فكل أمر أمرك الله -تبارك وتعالى- به فواجب عليك فيه هذه المراتب السبع آخرها هذا المذكور وهو «الثبات على الحق والخوف من سوء الخاتمة».

والثبات: الاستقامة على الهدى، والتمسك بالتقى، وإجماع النفس، وقسرها على سلوك طريق الحق والخير، وعدم الالتفات إلى صوارف الهوى والشيطان، ونوازع النفس والطغيان، مع سرعة الأوبة والتوبة حال ملابسة الإثم، أو الركون إلى الدنيا.

ومن أسباب الثبات: تدبر القرآن، وحسن الصلة بالله تعالى، والدعاء، وصحبة الصالحين، والاطلاع على سير السلف السالفين، والثقة بنصر الله رب العالمين.

والخوف من سوء الخاتمة -أعاذنا الله من ذلك- له أسباب، ولخاتمة الشوء طرق

وأبواب.

شرح رسالة: «واجب العبد إذا أمره الله بأمرٍ»

٦١

وأعظم الأسباب التي تُفضي لسوء الخاتمة: الانكباب على الدنيا، والإعراض عن الأخرى، والإقدام والجراءة على المعصية، فإذا ما كان للإنسان نصيب من ذلك ومَلَكَ قلبه، وسبى عقله، وأطفأ نوره، وأرسل عليه حُجبه لم تنفع فيه تذكرة، ولم تنجح معه موعظة، فربما جاء الموت على ذلك فسمع النداء من مكان بعيد فلم يتبين المراد، ولا علم ما أراد، وإن كرر عليه الداعي وأعاد.

وفي الصحيحين عن سهل بن سعد رضي الله عنه: أن النبي صلی الله علیه وآله وسلم التقى هو والمشركون وفي أصحابه رجل -يعني: في أصحاب النبي صلی الله علیه وآله وسلم - لا يدع شاة ولا فاذة إلا اتبعها يضربها بسيفه، فقال الصحابة رضي الله عنهم: ما أجزأنا اليوم أحد كما أجزأ فلان، ما قام منا أحد في الجهاد مقام فلان، هذا الذي كان لا يدع من العدو شاة ولا فاذة إلا اتبعها يضربها بسيفه. فقال النبي صلی الله علیه وآله وسلم لما سمع هذا من أصحابه رضي الله عنهم: «هو من أهل النار». هذا الذي قام هذا المقام، وفعل هذا الفعل، ولم يدع شاة ولا فاذة في صفوف الأعداء إلا اتبعها يضربها بسيفه، هذا الذي أعجب به الأصحاب وقالوا: ما أجزأنا أحد اليوم ما أجزأ فلان. هذا قال النبي صلی الله علیه وآله وسلم عنه: «هو في النار».

فقال رجل من القوم: أنا صاحبه، وسأنظر لكم خبره، فاتبعه فجرح الرجل جرحاً شديداً، فاستعجل الموت، فوضع نصل سيفه على الأرض ودبأ به -أي: طرفه- بين ثديه، ثم تحامل على سيفه فقتل نفسه، فخرج ذلك الرجل إلى الرسول صلی الله علیه وآله وسلم فقال: أشهد أنك رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم، وقص عليه القصة، فقال النبي صلی الله علیه وآله وسلم: «إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس، وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار

فَيَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»^(١).

زَادَ الْبُخَارِيُّ فِي رِوَايَةٍ لَهُ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ»^(٢).

فَكَانَ الصَّاحِجُونَ، وَكَانَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يَخَافُونَ وَيَحْذَرُونَ سُوءَ الْحَاتِمَةِ، وَلَا يَأْمَنُ الْحَاتِمَةَ إِلَّا مَخْدُوعٌ مَغْرُورٌ، لِأَنَّ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كَانُوا يَخَافُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى إِنَّ عُمَرَ -رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ-، سَأَلَ حُذِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -وَكَانَ صَاحِبَ سِرِّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَأَخْبَرَهُ بِمَنْ أَخْبَرَهُ مِنَ الْمُنَافِقِينَ مِنْ أَسْمَائِهِمْ، فَكَانَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَا يَشْهَدُ جَنَازَةَ يَشْكُ فِي صَاحِبِهَا حَتَّى يَنْظُرَ حُذِيفَةَ: أَشْهَدَ تِلْكَ الْجَنَازَةَ أَمْ لَا؟ فَإِنْ شَهِدَهَا حُذِيفَةُ شَهِدَهَا عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَإِنْ لَمْ يَشْهَدْهَا لَمْ يَشْهَدْهَا، ثُمَّ إِنَّهُ سَأَلَ حُذِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: نَشَدْتُكَ اللَّهُ يَا حُذِيفَةُ هَلْ ذَكَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَنْ ذَكَرَ -يَعْنِي: مِنَ الْمُنَافِقِينَ-، قَالَ: اللَّهُمَّ لَا، وَلَا أَرْكِي أَحَدًا بَعْدَكَ.

فَإِذَا كَانَ عُمَرُ -رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ- هُوَ الْمُحَدِّثُ الْمَلْهُمُّ الَّذِي إِذَا سَلَكَ فَجًّا سَلَكَ الشَّيْطَانُ فَجًّا غَيْرَهُ، عُمَرُ الْفَارُوقُ وَزِيرُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَنْ لَهُ فِي الْإِسْلَامِ الْمَشَاهِدُ وَالْمَوَاقِفُ الْمَعْرُوفَةُ، إِذَا كَانَ عُمَرُ يَخْشَى عَلَى نَفْسِهِ النِّفَاقَ فَكَيْفَ بِنَا؟!!
فَلَا يَأْمَنُ النِّفَاقَ إِلَّا مُنَافِقٌ، وَلَا يَخَافُ النِّفَاقَ إِلَّا مُؤْمِنٌ.

وَقَدْ قَالَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ -كَمَا تَجَدُّ ذَلِكَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ-^(٣) قَالَ: إِنَّهُ شَهِدَ ثَلَاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا مِنْهُمْ وَاحِدٌ إِلَّا وَهُوَ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ.

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٢٨٩٨)، ومسلم (١١٢).

(٢) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٦٦٠٧).

(٣) أخرجه البخاري تعليقا في كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر.

شرح رسالة: «واجب العبد إذا أمره الله بأمرٍ»

٦٣

أصحابُ النَّبِيِّ ﷺ كان الواحدُ منهم يخشى أن يُخْتَمَ لَهُ بِشَرٍّ؛ فكيف بمن دُوْنَهُمْ؟!
نسألُ اللهَ أنْ يُثَبِّتَنَا وأنْ يُحَسِّنَ خِتَامَنَا أَجْمَعِينَ.

قوله: «فِيَا يَبْدُو لِلنَّاسِ»: إشارةٌ إلى أن باطنَ الأمرِ يكونُ بخلافِ ذلك، وأن خاتمةَ
السُّوءِ تكونُ بسببِ دَسيْسَةِ باطِنِ للعبدِ لا يَطَّلِعُ عليها النَّاسُ.

قال عبد العزيز بن أبي رَوَادٍ^(١): حَضَرْتُ رَجُلًا عِنْدَ الْمَوْتِ يُلَقَّنُ بِالشَّهَادَةِ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، حَضَرَهُ عِنْدَ احْتِضَارِهِ -عِنْدَ مَوْتِهِ- وَمَنْ عِنْدَهُ يَلْقَاهُ يَقُولُ: يَا فُلَانُ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَالَ ذَلِكَ الْمُحْتَضِرُ فِي آخِرِ مَا قَالَ: هُوَ كَافِرٌ، وَمَاتَ عَلَى ذَلِكَ. قَالَ ابْنُ أَبِي رَوَادٍ: سَأَلْتُ عَنْهُ فَإِذَا هُوَ مُدْمِنٌ خَمْرٍ، فَكَانَ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ أَبِي رَوَادٍ يَقُولُ بَعْدُ: اتَّقُوا الذُّنُوبَ فَإِنَّهَا هِيَ الَّتِي أَوْفَعَتْهُ.

فهذه الدَّسيْسَةُ الباطِنَةُ، والحَسِيكَةُ الكَامِنَةُ، وذلك الشَّرُّ الَّذِي يُغَيِّبُ فِي الضَّمِيرِ فِي أَطْوَانِهِ، هُوَ الَّذِي يَخْذُلُ الْعَبْدَ عِنْدَ شُهُودِ مَلَائِكَةِ الْمَوْتِ، عِنْدَ قَبْضِ رُوحِهِ، كَمَثَلِ هَذَا الَّذِي كَانَ مُدْمِنًا لِلخَمْرِ يُقَالُ لَهُ قُلْ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، فَيَدْفَعُ ذَلِكَ حَتَّى كَانَ فِي آخِرِ مَا قَالَ: إِنَّهُ كَافِرٌ، ثُمَّ قَضَى وَمَضَى، نَسَأَلُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ السَّلَامَةَ وَالْعَافِيَةَ.

وفي الجملة: فالحَوَاتِيمُ مِيرَاثُ السَّوَابِقِ، فَكُلُّ ذَلِكَ سَبَقَ فِي الْكِتَابِ السَّابِقِ، وَكَانَ يَشْتَدُّ خَوْفُ السَّلَفِ مِنْ سُوءِ الْحَوَاتِيمِ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَفْلِقُ مِنْ ذِكْرِ السَّوَابِقِ.

وقد قيل: إِنَّ قُلُوبَ الْأَبْرَارِ مُعَلَّقَةٌ بِالْحَوَاتِيمِ، يَقُولُونَ: بِإِذَا يُخْتَمُ لَنَا؟

وَقُلُوبُ الْمُقَرَّبِينَ مُعَلَّقَةٌ بِالسَّوَابِقِ، يَقُولُونَ: مَاذَا سَبَقَ لَنَا فِي أَمِّ الْكِتَابِ؟

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب المُحْتَضِرِينَ برقم (٢٨٦)، وأورده ابن رجب في جامع العلوم والحكم (ص ٧٥).

شرح رسالة: «واجب العبد إذا أمره الله بأمر»

٦٤

وقال سُفيانُ بنُ عُيَيْنَةَ لأَحَدِ الصَّالِحِينَ^(١): هَلْ أَبْكَاكَ قَطُّ عِلْمُ اللَّهِ فِيكَ؟

لأنَّ الواحدَ مِنْهُمْ كَانَ يَقُولُ لِأَخِيهِ: اجْلِسْ بِنَا نَبْكِي سَاعَةً عَلَى عِلْمِ اللَّهِ فِينَا.
لأنَّ العبدَ لَا يَدْرِي مَا سَيُتَوَلَّى إِلَيْهِ الْأَمْرُ، وَلَعَلَّهُ يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ عِنْدَ الْمَوْتِ وَالنَّبِيِّ
ﷺ كَانَ مِنْ دُعَائِهِ: «وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ يَتَخَبَّطَنِي الشَّيْطَانُ عِنْدَ الْمَوْتِ»^(٢).

وَفِي الْحِكَايَةِ الْمَشْهُورَةِ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ - رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ -^(٣) وَكَانَ وَلَدُهُ عِنْدَهُ، فَكَانَ
يُلْقِنُهُ فِي حَالِ احْتِضَارِهِ، فَأَغْمِي عَلَيْهِ، فَكَانَ وَلَدُهُ يَقُولُ لَهُ قَبْلَ الْإِغْمَاءِ: يَا أَبَتِ، قُلْ: لَا
إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَكَانَ يَرُدُّ بِقَوْلِهِ: لَا بَعْدُ، لَا بَعْدُ، ثُمَّ أَغْشِي عَلَيْهِ، فَلَمَّا أَفَاقَ أَقْبَلَ عَلَيْهِ وَلَدُهُ
فَقَالَ: يَا أَبَتِ، قُلْتَ وَقُلْتَ وَخَشِيتُ عَلَيْكَ، فَقَالَ: يَا وَلَدِي لَمْ أَكُنْ مِمَّنْ يَخَاطِبُكَ، وَلَكِنَّ
الشَّيْطَانَ جَاءَنِي عَاضًا عَلَى إِبْهَامِهِ يَقُولُ: فَتَنِّي يَا أَحْمَدُ، فَقُلْتُ:
لَا بَعْدُ؛ حَتَّى تَخْرُجَ الرُّوحُ.

فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - حَتَّى تَكُونَ إِحْدَى قَدَمَيْهِ فِي الْجَنَّةِ، لَا؛ بَلْ حَتَّى
تَصِيرَ قَدَمَاهُ فِي الْجَنَّةِ، وَلِذَلِكَ كَانَ الصَّدِيقُ ﷺ يَبْكِي وَيَقُولُ: يَا لَيْتَنِي كُنْتُ شَعْرَةً فِي
جَنْبِ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ، يَا لَيْتَنِي كُنْتُ شَجَرَةً تُعْصَدُ.

وَعُمَرُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَهُوَ فِي سِيَاقِ الْمَوْتِ لَمَّا أَفَاقَ مِنْ غَشِيَّتِهِ فَوَجَدَ رَأْسَهُ فِي
حِجْرِ وَلَدِهِ عَبْدِ اللَّهِ فَقَالَ لَهُ: ضَعْ خَدِّي عَلَى الْأَرْضِ؛ عَسَى أَنْ يَرَى ذُلِّي فَيَرْحَمَنِي!

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٦/٢٤٦)، وأورده ابن رجب في جامع العلوم والحكم (ص ٥٧).

(٢) حديث صحيح: أخرجه أبو داود (١٥٥٢)، والنسائي (٥٥٣١)، وأحمد (١٥٠٩٧) من حديث أبي

اليسر كعب بن عمرو السلمي ﷺ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٢٨٢).

(٣) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٩/١٨٣)، وابن الجوزي في الثبات عند الممات (ص ١٦٠).

شرح رسالة: «واجب العبد إذا أمره الله بأمرٍ»

٦٥

فإذا كان هؤلاء -رضوان الله عليهم- بهذه المثابة من الخوف من سوء الخاتمة، فكيف بمن عاش في عصر كُله فتن، تموج فيه الفتن موجًا، وتضطرم فيه المحن اضطرامًا؟! فسأل الله التَّشيت والعافية.

كان الصحابة ومن بعدهم من السلف الصالح يخافون على أنفسهم النفاق، ويشتد قلقهم وجزعهم منه، فالمؤمن يخاف على نفسه النفاق الأصغر، ويخاف أن يغلب ذلك عليه عند الخاتمة فيخرج به إلى النفاق الأكبر، فدسائس السوء الحفية توجب سوء الخاتمة.

كان سفيان يشتد قلقه من السوايق والخواصم فكان يبكي ويقول: أخاف أن أكون في أم الكتاب شقيًا، ويبكي ويقول: أخاف أن أسلب الإيمان عند الموت، لأن للموت سكرات كما ذكر النبي ﷺ.

قال سفيان بن عيينة لأحد الصالحين^(١): هل أبكاك قط علم الله فيك؟ فقال له ذلك الرجل: تركتني لا أفرح بعدها أبدًا.

يعني: صدعت قلبي بهذا الكلام فلن يدخله فرح بعد.

كان النبي ﷺ يسأل الله تصريف القلب على الطاعة.

أخرج مسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن عمرو سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن **وَعَلَّانٌ** كقلب واحد يَصْرِفُهُ حيث يشاء»، ثم قال رسول الله ﷺ: «اللهم مُصْرِفَ القلوب صَرِّفْ قلوبنا على طاعتك»^(٢).

(١) تقدم قريبًا.

(٢) حديث صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٥٤).

شرح رسالة: «واجب العبد إذا أمره الله بأمرٍ»

وذلك لأن الأعمال بخواتيمها.

وأخرج ابن حبان عن معاوية رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم يقول: «إنما الأعمال بخواتيمها، كالوعاء إذا طاب أعلاه طاب أسفله، وإذا خُبث أعلاه خُبث أسفله» ^(١).

وأخرج مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلی الله علیه وآله وسلم قال: «إن الرجل ليعمل الزمان الطويل بعمل أهل الجنة ثم يُحتم له عمله بعمل أهل النار، وإن الرجل ليعمل الزمان الطويل بعمل أهل النار ثم يُحتم له عمله بعمل أهل الجنة» ^(٢).

ولذلك: سُكُونُ الْقَلْبِ إِلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ مِنَ الْغُرُورِ، هَذَا لَيْسَ مِنَ الْإِيمَانِ الصَّحِيحِ فِي شَيْءٍ، أَنْ يَسْكُنَ الْقَلْبُ إِلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا كَانَ يَأْتِي أَطْرَافًا مِمَّا كَلَّفَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ يَأْتِيهِ عَلَى نَحْوٍ مِنَ الْأَنْحَاءِ فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ يَأْمَنُ عَذَابَ اللَّهِ وَيَأْمَنُ سُوءَ الْحَاطِمَةِ، هَذَا كُلُّهُ مِنَ الْغُرُورِ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُزِيلَهُ الْمُؤْمِنُ مِنْ قَلْبِهِ، وَأَنْ يَخَافَ سُوءَ الْحَاطِمَةِ، وَأَنْ يَسْأَلَ اللَّهَ الثَّبَاتَ، كَمَا سَأَلَهُ النَّبِيُّ صلی الله علیه وآله وسلم، وَأَنْ يَسْأَلَ اللَّهَ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- تَصْرِيفَ الْقَلْبِ عَلَى الطَّاعَةِ.

أَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها أَنَّ النَّبِيَّ صلی الله علیه وآله وسلم كَانَ يُكْثِرُ فِي دُعَائِهِ أَنْ يَقُولَ: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ».

هَذَا دُعَاءُ الرَّسُولِ صلی الله علیه وآله وسلم فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: «إِنَّهُ لَيْسَ آدَمِيٌّ إِلَّا وَقَلْبُهُ بَيْنَ

(١) حديث حسن: أخرجه ابن حبان في صحيحه (٣٣٩)، وحسنه محقق صحيح ابن حبان.

وأخرجه ابن ماجه (٤١٩٩)، وأحمد (١٦٤١١) بلفظ: «إِنَّ مَا بَقِيَ مِنَ الدُّنْيَا بَلَاءٌ وَفِتْنَةٌ، وَإِنَّمَا مَثَلُ عَمَلٍ أَحَدِكُمْ كَمَثَلِ الْوَعَاءِ، إِذَا طَابَ أَعْلَاهُ طَابَ أَسْفَلُهُ، وَإِذَا خُبثَ أَعْلَاهُ خُبثَ أَسْفَلُهُ». وهذا اللفظ الإمام أحمد، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٧٣٤).

(٢) حديث صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٥١).

شرح رسالة: «واجب العبد إذا أمره الله بأمرٍ»

٦٧

إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ **وَكَلَّلًا**، فَمَنْ شَاءَ أَقَامَهُ، وَمَنْ شَاءَ أَرَاغَهُ ^(١).

فَلَا تَدْرِي مِنْ أَيِّ الْفَرِيقَيْنِ أَنْتَ؟

أَمْ مَنْ يُقِيمُهُ؟ أَمْ مَنْ يُزِيعُهُ؟

لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَجْزِمَ بِأَحَدِ هَذَيْنِ الاحْتِمَالَيْنِ، وَمَنْ رَجَحَ رَجَحَ مِنْ غَيْرِ مُرَجِّحٍ وَتَعَسَّفَ وَجَارَ، فَإِذَنْ الاحْتِمَالُ قَاضٍ بِأَنَّ الْإِنْسَانَ يُمَكِّنُ أَنْ يَمُوتَ عَلَى غَيْرِ الْمِلَّةِ، وَأَنَّ الْمُسْلِمَ مَهْمَا كَانَ عَمَلُهُ صَالِحًا وَكَانَ عَظِيمًا يُمَكِّنُ أَنْ يُسَلَبَ الْإِيمَانُ عِنْدَ السِّيَاقِ وَعِنْدَ الْإِحْتِصَارِ.

فَهَذَا أَمْرٌ يَنْبَغِي عَلَى الْمَرْءِ أَنْ يُلَاحِظَهُ، وَأَنْ يَخَافَ مِنْهُ، وَأَنْ يَتَلَدَّدَ لِأَجْلِهِ عَلَى فِرَاشِهِ لَيْلٍ حَتَّى يَقْضَى مَضْجَعُهُ، فَيَقُومَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ قَائِمًا مُسَبِّحًا وَذَاكِرًا وَمُصَلِّيًا وَلِلْقُرْآنِ تَالِيًا، مَخَافَةً أَنْ يُقْبَضَ، وَأَنْ تَسُوءَ خَاتِمَتُهُ.

لَقَدْ بَكَى سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ لَيْلَةً إِلَى الصَّبَاحِ فَلَمَّا أَصْبَحَ قِيلَ لَهُ: كُلُّ هَذَا خَوْفًا مِنْ الذُّنُوبِ؟! فَأَخَذَ نَبْتَةً مِنَ الْأَرْضِ وَقَالَ: الذُّنُوبُ أَهْوَنُ مِنْ هَذَا، وَإِنَّمَا أَبْكِي مِنْ خَوْفِ سُوءِ الْخَاتِمَةِ.

وهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْفَقْهِ: أَنْ يَخَافَ الرَّجُلُ أَنْ تَحْذُلَهُ ذُنُوبُهُ عِنْدَ الْمَوْتِ، فَيُحَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْخَاتِمَةِ الْحُسْنَى.

وسوء الخاتمة على درجتين:

الأولى: أَنْ يَغْلِبَ عَلَى الْقَلْبِ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ- شَكٌّ أَوْ جُحُودٌ عِنْدَ سَكْرَاتِ الْمَوْتِ وَأَهْوَالِهِ، فَيَقْتَضِي ذَلِكَ الْعَذَابَ الدَّائِمَ وَالْخُلُودَ فِي النَّارِ، وَهَذِهِ أَعْظَمُ الدَّرَجَتَيْنِ؛ يَعْنِي:

(١) حديث صحيح: أخرجه الترمذي (٣٥٢٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٨٠١).

شرح رسالة: «واجب العبد إذا أمره الله بأمرٍ»

٦٨

يُمْكِنُ أَنْ يُسَلَبَ الْإِيْمَانُ عِنْدَ الْمَوْتِ، وَمَنْ الَّذِي يَحْزِمُ بِأَنَّهُ سَيَمُوتُ مُسْلِمًا؟ لَا يَحْزِمُ بِذَلِكَ أَحَدٌ، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يُمَكِّنُ أَنْ يُسَلَبَ الْإِيْمَانُ عِنْدَ الْمَوْتِ فَيَمُوتَ عَلَى غَيْرِ الْمِلَّةِ، نَسَأَلُ اللَّهَ التَّشْيِيتَ وَالْعَافِيَةَ.

وَأَمَّا الثَّانِيَةُ: وَهِيَ أَهْوَنُ مِنْهَا، فَإِنَّ يَتَسَخَّطَ الْأَقْدَارَ، أَوْ يَتَكَلَّمَ بِالْإِعْتِرَاضِ، أَوْ يَجُورَ فِي الْوَصِيَّةِ، أَوْ يَمُوتَ مُصِرًّا عَلَى ذَنْبٍ مِنَ الذُّنُوبِ، وَهَذِهِ دُونِ الْأُولَى.

وَمِنْ أَسْبَابِ سُوءِ الْخَاتِمَةِ: الشُّكُّ وَالْجُحُودُ وَمَا تُسَبِّبُهُ الْبِدْعَةُ الْإِعْتِقَادِيَّةُ، فَالْبِدْعَةُ الْإِعْتِقَادِيَّةُ تُفْضِي إِلَى سُوءِ الْخَاتِمَةِ، وَكَذَلِكَ التَّسْوِيفُ بِالتَّوْبَةِ، وَطُولُ الْأَمَلِ، وَحُبُّ الْمَعَاصِي وَالْفُتُوحَاتِ وَاعْتِيَادُهَا، وَاخْتِلَافُ السَّرِيرَةِ وَالْعَلَانِيَةِ، وَالظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ، وَالْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، وَهَذَا هُوَ النِّفَاقُ.

فَكُلُّ ذَلِكَ مُفْضٍ إِلَى سُوءِ الْخَاتِمَةِ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي لَا تُحْصَى عَلَى سَبِيلِ التَّفْصِيلِ؛ نَسَأَلُ اللَّهَ الثَّبَاتَ وَالْعَافِيَةَ.

لَمَّا ذَكَرَ الشَّيْخُ **رَحِمَهُ اللَّهُ** الْمَرْتَبَةَ السَّابِعَةَ مِنْ مَرَاتِبِ مَا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْنَا نَحْوَ مَا أَمَرَنَا اللَّهُ بِهِ؛ وَهِيَ الثَّبَاتُ عَلَى الْحَقِّ وَالْخَوْفُ مِنْ سُوءِ الْخَاتِمَةِ قَالَ: «وَهَذِهِ أَيْضًا مِنْ أَعْظَمِ مَا يَخَافُ مِنْهُ الصَّالِحُونَ وَهِيَ قَلِيلٌ فِي زَمَانِنَا»، ثُمَّ سَأَلَ نَصِيحَةً عَظِيمَةً هِيَ: «وَالْتَفَكُّرُ فِي حَالِ الَّذِي تَعْرِفُ مِنَ النَّاسِ فِي هَذَا وَغَيْرِهِ يَدُلُّكَ عَلَى شَيْءٍ كَثِيرٍ تَجْهَلُهُ»، ثُمَّ خَتَمَ الرِّسَالَةَ بِرَدِّ الْعِلْمِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فَقَالَ: «وَاللَّهُ أَعْلَمُ».



شرح رسالة: «واجب العبد إذا أمره الله بأمر»

٦٩

نقول:

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيَّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، فَهَذَا مَا مَنَّ اللهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- بِهِ مِنْ
 شَرْحٍ لِهَذِهِ الرِّسَالَةِ الْمُوجِزَةِ، فَهَذِهِ الرِّسَالَةُ فِي صَفْحَتَيْنِ، وَلَكِنَّهَا جَامِعَةٌ لِهَذَا الْقَدْرِ
 الْعَظِيمِ مِنَ الْخَيْرِ كَمَا مَرَّ، وَهَذَا مَا مَنَّ اللهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- بِهِ مِنْ شَرْحٍ وَتَعْلِيْقٍ عَلَيْهَا.
 نَسْأَلُ اللهَ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- أَنْ يَجْعَلَ ذَلِكَ خَالِصًا لَوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَأَنْ يَقْبَلَهُ بِقَبُولٍ
 حَسَنٍ.

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيَّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ.
 وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.



فهرس الموضوعات

٥	مُقَدِّمَةُ الشَّارِحِ
١٣	مَتْنُ الرِّسَالَةِ
	بداية الشرح:
١٧	إِذَا أَمَرَ اللَّهُ الْعَبْدَ بِأَمْرٍ؛ وَجَبَ عَلَيْهِ فِيهِ سَبْعُ مَرَاتِبَ:
٢٠	* الْمُرْتَبَةُ الْأُولَى: العلمُ بأنَّ اللهَ أَمَرَ بالتوحيدِ ونَهَى عَنِ الشُّرْكِ
٢١	مَا وَجَبَ عَلَيْكَ فِعْلُهُ وَجَبَ عَلَيْكَ تَعَلُّمُهُ
٢٦	* الْمُرْتَبَةُ الثَّانِيَّةُ: مَحَبَّةُ مَا أَنْزَلَ اللهُ، وَكُفْرُ مَنْ كَرِهَهُ
٣٥	* الْمُرْتَبَةُ الثَّالِثَةُ: الْعَزْمُ عَلَى الْفِعْلِ
٤٠	* الْمُرْتَبَةُ الرَّابِعَةُ: الْعَمَلُ
	* الْمُرْتَبَةُ الْخَامِسَةُ: أَنْ كَثِيرًا مِمَّنْ عَمِلَ لَا يَقَعُ عَمَلُهُ خَالِصًا، فَإِنْ وَقَعَ خَالِصًا
٤٦	لَمْ يَقَعْ صَوَابًا
	* الْمُرْتَبَةُ السَّادِسَةُ: أَنْ الصَّالِحِينَ يَخَافُونَ مِنْ حُبُوطِ الْعَمَلِ، وَهَذَا مِنْ أَقَلِّ
٥٣	الْأَشْيَاءِ فِي زَمَانِنَا

شرح رسالة: «واجب العبد إذا أمره الله بأمرٍ»

٧١

- ٥٣..... مُحَاسِبَةُ النَّفْسِ بَعْدَ الْعَمَلِ ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ:
- ٥٣..... أَحَدُهَا: مُحَاسِبَتُهَا عَلَى طَاعَةٍ قَصَرَتْ فِيهَا مِنْ حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى
- ٥٤..... حَقُّ اللَّهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - فِي الطَّاعَةِ سِتَّةُ أُمُورٍ
- ٥٤..... وَالثَّانِي: أَنْ يُحَاسِبَ نَفْسَهُ عَلَى كُلِّ عَمَلٍ كَانَ تَرْكُهُ خَيْرًا لَهُ مِنْ فِعْلِهِ
- وَالثَّلَاثُ: أَنْ يُحَاسِبَ نَفْسَهُ عَلَى أَمْرٍ مُبَاحٍ أَوْ مُعْتَادٍ: لَمْ فَعَلْهُ؟ وَهَلْ أَرَادَ بِهِ اللَّهُ
وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَيَكُونُ رَابِعًا، أَوْ أَرَادَ بِهِ الدُّنْيَا وَعَاجِلُهَا فَيَخْسِرَ ذَلِكَ الرَّبْحَ
وَيُفَوِّتَهُ الظَّفَرُ بِهِ؟! ٥٥.....
- لَيْسَتْ الْعِبْرَةُ فِي الْعَمَلِ، وَإِنَّمَا الْعِبْرَةُ فِي حِفْظِ الْعَمَلِ مِمَّا يُجِبُّهُ وَيُيْطِلُّهُ
وَيُفْسِدُهُ بَعْدَ أَنْ وَقَعَ صَحِيحًا ٥٥.....
- * الْمُرْتَبَةُ السَّابِعَةُ: الثَّبَاتُ عَلَى الْحَقِّ وَالْخَوْفُ مِنْ سُوءِ الْخَاتِمَةِ ٦٠.....
- تعريف الثبات وذكر أسبابه ٦٠.....
- أَعْظَمُ الْأَسْبَابِ الَّتِي تُفْضِي لِسُوءِ الْخَاتِمَةِ ٦١.....
- قُلُوبُ الْأَبْرَارِ مُعَلَّقَةٌ بِالْخَوَاتِيمِ ٦٣.....
- أَعْظَمُ الْفَقْهِ: أَنْ يَخَافَ الرَّجُلُ أَنْ تَخْذُلَهُ ذُنُوبُهُ عِنْدَ الْمَوْتِ، فَيُحَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ
الْخَاتِمَةِ الْحُسْنَى ٦٧.....
- سُوءُ الْخَاتِمَةِ عَلَى دَرَجَتَيْنِ: ٦٧.....
- الْأُولَى: أَنْ يَغْلِبَ عَلَى الْقَلْبِ شَكٌّ أَوْ جُحُودٌ عِنْدَ سَكْرَاتِ الْمَوْتِ وَأَهْوَالِهِ،
فَيَقْضِي ذَلِكَ الْعَذَابَ الدَّائِمَ وَالْخُلُودَ فِي النَّارِ ٦٧.....

شرح رسالة: «واجب العبد إذا أمره الله بأمرٍ»

٧٢

الثانية: أَنْ يَتَسَخَّطَ الْأَقْدَارَ، أَوْ يَتَكَلَّمَ بِالاعتِرَاضِ، أَوْ يُجَوِّرَ فِي الوَصِيَّةِ،

٦٨..... أَوْ يَمُوتَ مُصِرًّا عَلَى ذَنْبٍ مِنَ الذُّنُوبِ.....

٦٩..... الخاتمة.....

٧٠..... الفهرس.....

